نحن لا ننادي بعدم الاستئناس بالاساليب الغربية ؛ ولكننا نطالب بالحفاظ على خصائص اللغة العربية . فكل هذه الاستعمالات بجانب الذوق العربي والسليقة العربية والاصالة العربية؛ ولقد شاعت في الصحف اولا حيث تترجم برقيات وكالات الانباء حرفيا طلبا للسرعة ورددتها محطات الاذاعة والتلفزيون . ثم عمت في الترجمات الرخيصة التي اقتدت بها . فليس لها من العربية الا الالفاظ والحروف . ولكنها غريبة الدم والمخبر . ان هذه الاستعمالات لا تصدر ولن تصدر عن كاتب عظيم . بل هي لا تصدر الا عن صغار الكتاب والمترجمين . فلم اجد للمازني او العقاد او طه حسين وامثالهم استعمالات ركيكة كهذه . رغم انهم اغنوا الاسلوب العربي كثيرا بالاستعمالات الجديدة دون ان يضحوا بعبقريته واصالته .

ولي ملاحظة احب ان ابديها في هذه المناسبة تتصل بتركيب المصطلح العلمي . فمن المعروف ان اللغة العربية فقيرة جدا في التركيب المزجي . فبينما يستطيع المؤلف في اللغات الاوربية تركيب اي مصطلح بالرجوع الى الاصول اليونانية واللاتينية بمزج الجذور التي يصل اليها بعضها مع بعض نجد اللغة العربية عاجزة عن ذلك عجزا يكاد يكون تاما . فنرى المؤلف في اللغة العربية اذا اراد التعبير عن مصطلح علمي ما . اما ان يبحث كلمة جديدة قد لا تؤدي المعنى المطلوب فلا ينعقد عليها الاجماع . واما ان يستعمل جملة طويلة للتعبير عن مصطلح علمي واحد. ولي في هذا المجال اقتراح لا اعلم مدى قيمته لاني اجهل الكثير من ملابساته . فلئن كانت اللغة العربية فقيرة في التركيب المزجي فهي غنية جدا في الاوزان. حتى اصبحت من هذه الناحية مدعاة اعجاب كثير من المستشرقين . وعلى فرض ان هذه الاوزان لا تكفي فيما يرجع الى اللغات الشرقية التي يطلق عليها احيانا اسم اللغات السامية . فنعمل فيها اوزانا ليست في اللغة العربية . ولا يقتصر الامر في نظري على هذا . بل يمكن الاستعانة باللغات السامية من ناحية اخرى . رغم كل ما يقال من ان اللغة العربية اغنى منها جميعا . فكما ان الاوروبيين يرجعون الى اصول لاتينية ويونانية ؛ اي الى اصول تتشابه فيها لغة التعبير واللفظ والكتابة لوجود لحمة من النسب او لوجود وحدة عضوية بينها — اذ هي من اروسة واحدة ؛ فكذلك اتساءل بيني وبين نفسي عما اذا كان بمكننا ان نفعل شيئا قريبا من هذا باللغة العربية. فهناك وحدة عضوية بين اللغة العربية وبين كثير من اللغات التي تسمى باللغات السامية . فما المانع ان نرجع اليها في وضع مصطلحاتنا ، ولا ضير في ذلك على اللغة العربية في شيء . بل هو مصدر اغناء لها ؛ كما ان الرجوع الى اللاتينية واليونانية لم يكن ليضير اللغات الاوربية في شيء بل لقد كان مصدر اغناء لها. وحبذا لو كنت محيطا ببعض اللغات السامية لاحكم على مدى قابلية اقتراحي للتطبيق . ولكني وطيد الامل ان يصل هذا الاقتراح الى آذان الخبراء بالساميات ليبينوا لنا مدى امكان الاستفادة منه . وعندئذ لا يقال ان لغة الضاد رديئة جدا من حيث التركيب المزجي .

واخيرا لي ماخذ على بعض الترجمات — حتى القيمة منها — وهو خلوها من ذكر المصطلحات العلمية واسماء الاعلام وعناوين الكتب في لغاتها الاصلية . فانا من حيث المبدا افضل دائما ان اقرا الكتاب في لغته الاصلية لاني لا اثق بكثير من الترجمات . فضلا عن اني اشعر بغربة كبيرة وانا اقرا كتابا مترجما الى العربية . وكثيرا ما لا افهم ما اقرا ولا عمن اقرا . فالمترجم حفظه الله كلما وجد مصطلحا علميا ترجمه بما يتراءى له او اثبت اسم صاحبه كما يريد ؛ وهذا من حقه . الا ان من حق القاريء عليه ان يثبت له المصطلح بلغته الاصلية وكذلك ان يثبت له اسماء الاعلام الى جانب النص العربي ، ليسهل عليه فهم الموضوع . والا ضاعت الفائدة المتوخاة من ترجمة الكتاب . فان كان القاريء خالي الذهن من الموضوع لم يفهم شيئا بطبيعة الحال ، وان كان ملما به اصطدم بمصطلحات غير واضحة المعنى فاختل فهمه للموضوع ولعن الترجمة والمترجمين .

والخلاصة ان الترجمة عمل مضن ، فلا يقدم عليه من ليس اهلا له . فاما الزبد فيذهب جفاء ، واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض .

تطور النهضة الثقافية في الشام والمجمع العلمي اللبناني

الأستاذ محمد جميل بيرم

(لبنـــان)

كثيرا ما لاحظت ان الباحثين في موضوع تاريخ الثقافة العربية يغفلون عن ذكر المجمع العلمي اللبناني ويعود ذلك الى قلة السنين التي قضاها ، والى تقصيرنا ، نحن اللبنانيين ، في تدوين اعماله . وهي اعمال غير قليلة بالنسبة لعمره .

وقد رايت ان اتلافي هذا التقصير على ان اتخذ هذه المناسبة فرصة لعرض ناحية مهمة في تاريخنا ، واعني بها ناحية تطور نهضتنا الثقافية في بلاد الشام على مر العصور حتى الآن وذلك بصورة موجزة تتناول الخطوط الكبرى بحسب رابطة الاسباب بالمسببات .

العالم العربي خلال ثلاثة قرون

لما وضعت كتابي « العرب والترك في صراع بين الشرق والغرب » الذي صدر سنة 1957 جعلت هذا العنوان عنوانا للفصل الثالث منه . حيث بينت بالادلة ان القرون الثلاثة التي تبدأ بمطلع القرن الثامن الميلادي وتنتهي بختام القرن العاشر كانت قرونا ذات طابع عربي في العالم ، سواء اكان ذلك في النواحي السياسية والتجارية والصناعية أم في النواحي الصناعية والزراعية والثقافية ، وانها كانت كلها تقتبس من معين الحضارة العربية . ثم جعلت عنوان الفصل الرابع «اين من سادوا وشادوا وبنوا ؟ ذلك الفصل الذي تناول انهيار العرب ، وتغلب الاعاجم عليهم الى ان استأثر بالحكم آل عثمان . وليس المجال هنا فسيحا للتبسط في جميع اطراف هذا الموضوع ، وانما اكتفي بالناحية الثقافية منه ، وبالخطوط البارزة من هذه الناحية فقط ، وذلك نتيجة للاحداث السياسية .

الحملات الصليبية

لقد دعا كل من البابا سلفستر الثاني في سنة 393 هـ ـ 1002 م والبابا غريغوار السابع في عام 468 هـ ـ 1075 م ملوك اوروبا واصحاب الاقطاعات لتخليص بيت المقدس . ولكن دعوتيهما ذهبتا ادراج الرياح . حتى اذا ما شب الخصام بين الاسرة السلجوقية بعد موت السلطان ملكشاه ونشبت الحروب بينها بعد نحو عشرين سنة من هاتين الدعوتين كانت صرخة ناسك فقير هناك كافية لجمع كلمة الاوربيين من اجل انقاذ قبر المسيح . وقد حملوا على بلاد الشام ثماني حملات كانت اولاها في سنة 409 هـ ـ 1096 م ، والاخيرة في سنة 669 هـ ـ 1270 م .

وبين هذه وتلك استقر الصليبيون في بلاد الشام مدة طويلة ، وتسلطوا على بيت المقدس الى ان تصدى لهم ، عقب الحملة الصليبية الثالثة ، صلاح الدين الايوبي سلطان مصر والشام 532 ـ 589 هـ ، 1137 ـ 1193 م واخرجهم من فلسطين وما حولها، ثم كان المماليك البحرية خلفاء الايوبيين بمصر سبب صد الحملات الصليبية الاخرى عن مصر ، واخراجها من كافة بلاد الشام .

غير ان هذه البلاد ظلت نحو جيلين دار حرب فكسد فيها سوق العلم والادب ، ولولا الحاجة الماسة الى العلوم الدينية لانصرف الناس عنها ايضا . هذا فضلا عن كون اكثر بيوت العلم قد اقفلت في تلك الحقبة وان المكتبات قد احرقت بفعل تلك الحروب . وحسبنا ان نذكر ان مكتبة طرابلس التي احرقت في عهد الصليبيين ، او احرقوها ، كانت على ما قيل تحفل

بثلاثة ملايين مخطوطة . وكل ذلك كان من اسباب ذيول الحضارة العربية في المشرق .

الحملات المغولية

وجاءت النكبة الثانية على الحضارة العربية من المشرق فاودت بها . ففي غضون الحروب الصليبية خف المغول الى اكتساح بلاد الشام . وهم قوم غزاة كانوا ينزلون في منشوريا بين نهري سنكارى والايرتس طالما هددوا الصين ، وتعرضوا لها حتى اضطر احد اباطرتها شي هنغ تي لتشييد السور الكبير ، ابتداء من سنة 240 الى سنة 210 ق م ليكون سدا بين بلاده وبين هؤلاء المنشوريين . وهو على ما اثبت بكتابي « الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية كانك تراهما » بعد زيارتي له هو نفس سد ذي القرنين الذي ورد ذكره في القرءان الكريم . غير ان هذا السور لم يقو فيما بعد على دفع غارات المغول، بل ان ملكهم جنكيزخان الذي انشأ امبراطورية كانت تمتد من بحر اليابان الى بحر قزوين فقد تعداه الى الصين وفرض على حكومتها الشرقية جعلا لقاء حراسة الحدود ؛ كما ان ولده كوبيلاي نقل عاصمة بلاده من قرة كروم الى بكين .

وكان جنكيز خان يرنو بعين الطمع الى بلاد الاسلام لما بلغه عن خيراتها وعمرانها ثم لما علمه من تنازع ملوك الترك في اطرافها ؛ بالاضافة الى ضعف الخلفاء العباسيين الذين لم يترك لهم هؤلاء الاعاجم الا السلطة الروحية ؛ فتقدم اليها حتى استولى على تركستان . ولكن الاجل عاجله قبل ان يدرك امنيته من البلاد العربية . ولما بويع الخان منكو بن طولي سنة 1246 م عهد الى قائده هولاكو فتح بغداد، كما عهد الى قادة آخرين اكتساح اقاليم اخرى .

وقد ارسل هذا الخان وفدا الى لويس التاسع ملك فرنسا في قبرص ، وهو قائد الحملة الصليبية السابقة . يدعوه فيها للاتفاق بينهما على المسلمين ، كما ان عطف هولاكو على النصارى ــ اذ كانت امه وزوجته مسيحيتين ــ اغرى البابا اسكندر الرابع بدعوته الى اعتناق دين المسيح لقاء وعد منه بمساعدته على المسلمين، ولكن هولاكو استنكر هذه الدعوة وبقي على دين بوذا وعلى الرغم من وحدة الهدف بينهما فلم يصلا الى توحيد العمل وانما اقتصرت العلاقات بينهما على التواد والتعاطف .

ولما دخل هولاكو بغداد سنة 656 هـ ــ 1258م قتل المغول ما يزيد على مليون رجل فيها والقوا في دجلة كتبها وكانت ، على قول مجلة الهلال م 19 ص 392 ، « شيئا لا يعبر عنه » ثم لما استتب له الامر فيها سير جنوده الى فتح الشام ، وقد تمكنوا من الاستيلاء عليها حتى بلغوا غزة ، غير انهم لم يتعرضوا للثغور التي كانت لا تزال في حوزة الصليبيين، واهمها انطاكية ويافا وعكا . اما فظائعهم فيها ولاسيما في حلب فعلى قول ابن العبري تجاوزت الحد الذي ارتكبوه في العراق . وكان اشدها تعرضهم للمكتبات التي كانت زينة الحضارة العربية وقوامها .

نتائج الحملات الصليبية والحروب المغولية في الناحية الثقافية

ان الملوك اذا دخلوا قرية جعلوا عاليها سافلها فيكفي القول ان بلاد الشام كانت دار حرب تتناوشها من الشرق والغرب طوال ثلاثة قرون ونصف القرن اي من مطلع القرن الحادي عشر للميلاد الى اواسط القرن الثالث عشر يكفي هذا القول لتقدير سوء احوالها المادية والمعنوية فضلا عن الثقافية . ولاسيما اذا اضفنا الى ذلك الحروب الداخلية بين الاسرة السلجوقية ، ثم بين آل زنكي وآل ايوب ، ناهيك بالفتن الطائفية بين السنة والشيعة . فكان من حصيلة كل ذلك اندراس المكتبات ، واقفال المدارس ، وضياع الاوقاف المحبسة على تلك المدارس والاعمال الخيرية، وتحطيم الاقلام وتقليص القرائحعلى ان هذه الكوارث لم تنته بانتهاء القرن الثالث عشر ، وانما استمرت وبرزت على اشدها في مطلع القرن الخامس عشر بحملة تيمور لنك التركي على آل عثمان وعلى بلاد الشام فقضت على البقية الباقية من معالمها الثقافية .

وتجدر الاشارة هنا الى ان العلم كان قد التجأ بعد سقوط بغداد الى مصر وسوريا . وقد رعاه الايوبيون بمصر والمماليك بعدهم فازدهر بمصر ، وانتعش ببلاد الشام التابعة لهم الا انهم طاردوا الفلسفة ولاحقوا ذويها . وفي ذلك الحين تناولت حلب علم الزعامة الثقافية من دمشق حتى قام فيها على رواية محمد كرد علي في خطط الشام « ثلاث مدارس للطب ومدرسة للهندسة » ولكن هذه المدارس وغيرها قضت عليها حملة تيمور لنك فاضاعت الشهباء ازدهارها .

وعلى كل حال فلولا تلك النهضة العلمية التي برزت بمصر خلال حكم بني ايوب وخلفائهم المماليك وشخوص الطلبة السوريين لتلقي العلم ولاسيما في

ازهر عهودها لاندرست الثقافة فى بلاد الشام، ولما بقي فيها عالم او اديب بالمعنى الصحيح . وعلى الرغم من ان كثرة العلماء امسوا فيها من الحشويين الذين يختارون فى التاويل الغريب المدسوس على الصريح المعقول ، ومن ان اكثر الادباء امسوا يعنون بالالفاظ الرنانة والعبارات المنمقة دون المعاني ، ودون توجيه الشعب للبناء والانطلاق فان البلاد لم يدركها القحط الكلي. بل ظهر فيها من العلماء والادباء نفر اتيح لهم ان يتمتعوا بالشهرة كابن عساكر المتوفي سنة 616 هـ ، وابن الفارض 645 ، وابن الاثير 637 ، وابن تيمية المولود سنة 661 .

عهد السلطنة العثمانية :

كان من المفروض فى بني عثمان الذين اتيح لهم ان يقيموا امبراطورية عظيمة على انقاض الممالك العربية وعلى انقاض الامبراطورية البيزنطية التى كانت فى ذلك العصر منارة العلم فى الغرب ، كان من المفروض ان يستغلوا مخلفات هاتين الامتين وان يعطوا العالم حضارة جديدة او ان يسيروا على الاقل فى مواكب التمدن الحديث . ولكنهم باستثناء سلاطينهم الاولين الذين قلدوا الخلفاء العباسيين برعاية العلم والادب ، وتحلوا بهما انصرفوا عن كل ذلك الى حروب كانت غايتها فى البداية التوسع فى اوربا ، وكان هدفها فى النهاية الحفاظ على مكاسبهم الحربية ، ثم الدفاع عنها تجاه الاتحاد الاوربي المقدس الذى ابرم ضدهم . وبهذا وذاك ظلوا بعيدين عن العلم والادب ، فما حافظوا على ما ورثوه من العرب ، وما اقتبسوا التمدن الحديث من الغرب الا بعد ان اشرفت دولتهم على الانهيار . على انهم ما ان فكروا فى وجوب الخروج من نطاق الجمود وباشروا الاصلاح حتى كان هدفهم ينحصر فى الشؤون العسكرية فانشأ السلطان مصطفى الثالث (1757 م ـ 1774) مدرسة الفنون الحربية . ولكن السلطان محمود الثاني (1808 م ـ 1839 م)ماان اتيح له القضاء على الانكشارية ، هذه الطغمة التى كانت تقف فى وجه التجدد ، حتى عمد الى الانطلاق فى سبيل الاقتباس من اوربا . وفضلا عن بنائه المعهد الطبي باسطامبول فقد اوفد بعثة من الطلبة للتخصص فى معاهد اوروبا . كما ان خلفاءه شرعوا يعنون بالولايات . ولكن عنايتهم هذه كانت لا تتجاوز انشاء مدارس اعدادية وعسكرية كانت الغاية منها اعداد الموظفين للحكومة ، واعداد الضباط للجيش .

واما الشعب فلم يكن احد منهم يهتم به . وهو ، وفى مقدمته العرب ، كان قد استيقظ بالتماس مع العالم الغربي بالمدارس والتجارة والهجرة ، واصبح تواقا للمعرفة ومجاراة الركب العالمي فلم يسعه الا الاقبال على المدارس التبشيرية المختلفة التي انتشرت فى كل مكان علاوة على المدارس الخاصة التى انشأتها الطوائف . فكانت العاقبة ان رعايا السلطنة العثمانية، الذين هم فى الاصل لا يشكلون وحدة قومية، امسوا كتلا متباينة الاهداف فى السياسة ، ومتباعدة فى النطاق الملي . وكل ذلك افضى فى النهاية الى متاعب واجهتها السلطنة عجلت بزوالها .

ومن رعى غنما فى ارض مسبعة
وغاب عنها تولى رعيها الاسد

النهضة الثقافية الحديثة فى الشام :

اثر اختلاط الغرب بالمسلمين فى بلاد الشام والاندلس وصقلية ، وفى اعقاب هجرة علماء بيزنطة الى بلادهم بعد فتح العثمانيين عاصمتهم القسطنطينية سنة 857 هـ ـ 1457 م انتفض الغرب انتفاضة جبارة خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، كانت منطلقا لحياة جديدة فى الاجيال اللاحقة . ولم تقتصر نهضته على الناحية الثقافية ، وانما تناولت الشؤون الاقتصادية ، وتركزت على القوة العسكرية.

ولكن الغرب على الرغم من انصرافه الى بناء مطرد لم ينس ابدا بيت المقدس . وآية ذلك ان ملك اسبانيا فيليب الثاني اغتنم فرصة وجود الامير فخر الدين المعني الثاني فى ضيافته بصقلية وذلك فى مطلع القرن السابع عشر ، ليعرض عليه التعاون معه على طرد العثمانيين من البلاد المقدسة . ولكن على الرغم من خصومة الامير لهؤلاء ابى واستنكر وفضل العودة الى بلاده على التواطؤ مع الاجانب على دولته ، وعلى مقدساته .

ثم لما جاء عهد الاستعمار وانتقلت المبادرة الى الدول الاوربية ظلت فلسطين ماثلة امام امين هذه الدول ، ولاسيما حين تداعت السلطنة العثمانية ، واصبحت كل واحدة منها تسعى لان تؤمن نصيبها من ارث الرجل المريض .

وقد وضعت اعتمادها على الارساليات التبشيرية التي كانت بمثابة طلائع جيش الفتح لان هذه الارساليات لم يكن يعهد اليها التبشير بواسطة المدارس فقط ، وانما كانت تعمل كدائرة

استخبارات لتسهيل الفتح ، والاعداد له بشتى الوسائل ومهما يكن من أمر فان هذه الارساليات التي ترجع اولاها الى عهد الامير فخر الدين المعني المشار اليه فانها ولا شك عملت لبعث نهضة ثقافية في سوريا ، ولاسيما بلبنان رافقتها نهضة تجارية واجتماعية .

ثم كان لاحتلال نابوليون بونابرت لمصر سنة 1213 هـ ـ 1798 م اثر كبير في نهضة الشرق العربي ذلك لان هذا الفاتح الكبير استصحب معه لوادي النيل بعثة علمية فنية كانت حافلة باشهر علماء فرنسا ، فوضعت التصاميم الاصلاحية وقامت ببعض المشاريع العمرانية التي كانت فيما بعد منطلقا لنهضة هذا المشرق الحديثة في عهد الاسرة العلوية، وخدوبيها ولا سيما في لبنان الذي ساهم ابناؤه في النهضة المصرية .

النهضة الثقافية في لبنان :

منذ عني الاوروبيون بطباعة الكتب العربية وترجمتها في مطلع القرن الخامس عشر بادروا للاستعانة ببعض المثقفين من اللبنانيين ، ولاسيما رجال الاكليروس . فانتقل هؤلاء الى روما والى اكثر العواصم الغربية والجنوبية ، وساهموا فيها باعمال الترجمة والطبع والتدريس وقد تولى نفر منهم الوظائف . وسرعان ما كان ذلك حافزا لهم وللمتخلفين منهم للالتفات الى وطنهم ، فانشاوا في عام 1042 هـ ـ 1632 م المدرسة الاولى في قرية حوقه ، والثانية في حلب عام 1073 هـ ـ 1662 م وكانت اولى المطابع تلك التي استجلبها البطريرك اثناسيوس دباس الى حلب في مطلع القرن الثامن عشر . والثانية مطبعة الراهب الحلبي عبد الله زاخر في دير مار يوحنا الطبشة في الخنشارة بلبنان ، وفي غضون تسابق الدول الاجنبية الى فتح المدارس التبشيرية في المدن والقرى في كل من ولاية بيروت ومتصرفية لبنان وغيرهما ادرك البيروتيون ، وعلى راسهم رجال الدين مغبة ترك تربية اولادهم لسواهم فخفت كل طائفة منهم لانشاء المدارس الوطنية .

وكان من نتيجة انتشار العلم في الساحل السوري على وجه عام ذلك الاقبال الشديد الذي برز من قبل مثقفي الشعب على المزيد من فتح المدارس واصدار الصحف ، وانشاء المطابع ، وقراءة الكتب وتاليفها . وقد رافق هذا الاقبال ميل من الشعب لتاليف الجمعيات ولاسيما الادبية والخيرية منها ، ولكن الوضع العثماني لم يكن يشجعهم ولذلك اضطروا في البداية الى اللجوء للتعاون مع الاجانب ، الذين كانت تحميهم الامتيازات من اجل تاليف الجمعيات المنشودة . وقد الف بعض علماء بيروت وادبائها سنة 1858 بالتعاون مع بعض المرسلين الاميركان « الجمعية العلمية السورية » التي كانت غايتها الاهتمام بنشر المعرفة وخدمة الادب فعاشت نحو سبع سنين . ثم لم تلبث ان عادت للحياة في عام 1867 ، واصدت مجلة باسم مجلة مجموع العلوم . ولكنها لم تعش طويلا .

وفي اعقاب ذلك تبدل الوضع في سوريا حينما نصب مدحت باشا الملقب بابي الدستور واليا عليها سنة 1829 م . فهو اذ كان يطمع بالاستقلال في بلاد الشام على غرار خيديوية مصر بتشجيع من فرنسا شرع يتحبب الى اهلها فاطلق لهم شيئا كثيرا من الحرية . وكان الجو الذي بدا في ايام ولايته وما بعدها مشجعا لبعض اهل العلم والادب من البيروتيين لان يؤلفوا المجمع العلمي الشرقي سنة 1881 بالاستقلال عن الاجانب . ولعلهم اختاروا هذا الاسم لجمعيتهم من قبيل التمثل بالاوروبيين ومجامعهم العلمية . ولكن هذا المجمع لم يكمل العامين من العمر . فانبرى بعيد ذلك المطران يوسف الدبس لانشاء الدائرة العلمية المارونية برئاسته . ولم تكن اطول عمرا من سابقاتها . ذلك بان السلطان عبد الحميد الثاني (1876 ـ 1909) لم يكن يرتاح للتكتلات الشعبية ـ الامر الذي ادى الى انحلال الجمعيات الخيرية ايضا ؛ وفي مقدمتها جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية . ولولا ان جمعية شمس البر الادبية كانت تستند الى رعاية الاميركان وحمايتهم لما عاشت حتى الحرب العالمية الاولى (1914 ـ 1918) . ولا بدع فلقد كان عهد هذا السلطان شديد الحذر من مؤامرات الدول الاجنبية التي كانت تحاك حوله . والى ذلك فلم يكن يطمئن لشعبه الذي تخرج في المدارس الاجنبية .

وهذا الخوف من الداخل والخارج حمله على التشديد في المراقبة والمعاقبة على الشبهات احيانا . من ذلك ان شاعرا بيروتيا ؛ واظنه مصباح البربير نظم قصيدة غزلية كان مطلعها :

ان حبي كل يوم في ازدياد
والهوى ياتي على غير المراد

فقامت قيامة الولاية في بيروت ؛ وانتصب

الميزان . لماذا ؟ ـ لان للسلطان اخا اسمه مراد كان قد اتهم بالخبل فخلع وبويع السلطان عبد الحميد مكانه . ومن هنا اتهم الشاعر بانه يعرض بالعاهل المخلوع وسيق للمحاكمة .

وفي عهد كهذا ليس من المنتظر ان تتالف الجمعيات، واذا تالفت لم يكن من المقدر لها ان تعيش.

المجمع العلمي اللبناني :

حفل لبنان في صدر القرن العشرين بحملة الشهادات العليا من خريجي المعاهد والمدارس الموفورة فيه ، ومن خريجي جامعات الغرب . ولما اصبح له كيان سياسي في عهد الانتداب الفرنسي بالقانون الاساسي والحكم الدستوري اتجهت انظار الطبقة المثقفة فيه الى ان تكون له هيئة تمثل وجه وطنها الثقافي . وذلك بانشاء مجمع علمي اسوة بسوريا منذ عام 1919 . وكان الشيخ ابراهيم المنذر الاديب الكبير عضوا في المجلس النيابي اللبناني فاثار هذا الموضوع . ثم كانت له وقفات حوله قوية خلال عام 1927 سرعان ما اثمرت فقرر المجلس انشاء المجمع المنشود على الرغم من ان الانتداب الذي كان يشجع اللغة العامية بلبنان ضمن نطاق تبعيده عن شقيقاته لم يكن راضيا عن هذا العمل . واستنادا الى قرار المجلس المذكور اصدر رئيس الجمهورية الاستاذ شارل دباس قانونا بانشاء مجمع علمي لبناني وذلك في 20 شباط 1928 غايته المحافظة على اللغة العربية ورفع شانها ، والعناية بالمباحث والاعمال المتعلقة باصولها وآدابها والمحافظة على الآثار ، ودراسة تاريخ لبنان وجغرافيته ، وغير ذلك مما يتعلق بادارة الشؤون العلمية وتنظيمها . واصدر مرسوما آخر بتعيين السادة الآتية اسماؤهم اعضاء لهذا المجمع : الشيخ ابراهيم المنذر ، والشيخ عبد الله البستاني، والشيخ امين تقي الدين (1) ، والشيخ منير بسيران، والشيخ محمد الحسيني، والاستاذ بولس خولي ، والبطريرك اغناطيوس افرام الرحماني ، والشيخ عبد الرحمن سلام ، والخولي بولس عبود ، والاستاذ وديع عقل ، والاستاذ الياس فياض ، والشيخ احمد عمر المحمصاني ، والاستاذ عيسى اسكندر المعلوف ، والاب لويس المعلوف ، والشيخ حسين مغنية .

وفي التاسع من شهر اذار 1928 افتتح المجلس اعماله بحضور الشيخ بشارة خليل الخوري رئيس الوزراء الذي كان وزيرا للتربية الوطنية ، وانتخب مكتبه التنفيذي على الوجه التالي : الشيخ عبد الله البستاني رئيسا ، والشيخ احمد عمر المحمصاني ، والاستاذ وديع عقل ، معاونين للرئيس. وقد اتخذ المجمع في اول الامر وزارة المعارف والتربية مقرا له ، ثم انتقل الى دار الكتب الوطنية، ووالى اجتماعاته فيها الى ان استقل في دار له خاصة .

وقد حالت بعض الاسباب دون اشتراك السادة عبد الله البستاني والاب لويس معلوف ، والاستاذ عيسى المعلوف ، والشيخ محمد الحسيني والشيخ حسن مغنية في جلسات المجمع الاولى فقرر اعتبارهم اعضاء مراسلين وانتخب بدلا منهم السادة : الشيخ علي زين ، والخوري جرجي سنيني « الذي اصبح من بعد مطران السريان بدمشق » ، وجرجي صفا ، واسد رستم ، ومحمد جميل بيهم . ونتيجة لهذا التبديل اجتمع المجمع في 25 تشرين الاول 1928 وانتخب الاستاذ وديع عقل رئيسا له ، والياس بك فياض والشيخ ابراهيم المنذر معاونين وذلك لمدة عام . وقد وضع المجمع خلاله نظامه الداخلي .

ولما ازف موعد الانتخاب في السنة التالية ، وشعرت السلطة ان نية اكثر اعضاء المجمع منصرفة لانتخابي للرياسة تحركت فورا لاني كنت من اشد المعارضين بلبنان للانتداب ، والمنادين بالوحدة العربية . وقد عهدت الى الشيخ بشير الخوري المندوب من وزارة المعارف للاشراف على الانتخابات السعي لتوجيه الاعضاء الى تجديد الرياسة للاستاذ وديع عقل ، وذلك في جلسة الانتخاب المحددة في 18 تشرين الاول 1929 ولما باءت مساعيه بالفشل تحول بكليته الي ، وشرع يقنعني بالتخلي عن الرياسة للاستاذ عقل لسنة اخرى على ان اعلن ذلك ارملائي. فكان جوابي له :اني لم اكلف احدا منهم ان ينتخبني، كما اني لا اعلم من هو المرشح عند كل منهم فكيف يسوغ لي من بعد ان اطلب منهم ان لا ينتخبوني لمنصب الرئاسة واعرض نفسي لقول قائل : من اخبرك اني مزمع ان اصوت لك ؟ . ولما استولى عليه الياس اجل الانتخاب ريثما يقابل نسيبه الرئيس

(1) وهم من المشايخ المدنيين الذين تحمل اسرهم هذا اللقب .

الشيخ بشارة الخوري . ولم يلبث الا قليلا حتى عاد حاملا الي بشرى الوعد بتعييني وزيرا للمعارف والتربية الوطنية اذا تخليت عن رياسة المجمع . فقلت له مبتسما انت تعلم يا شيخي اني لست من طلاب الوظائف ، كما تعلم ايضا ، مما نشرته الصحف في حينه ، اني كلفت باشغال مناصب عالية من قبل فرفضت التعاون مع العهد ، فكيف تريدني التحول الآن عن مبدئي ؟ فما وسع البشير الا السكوت على مضض . ولما جرى الانتخاب يومئذ اسفر عن احرازي معظم الاصوات للرياسة ، وعن انتخاب الشيخ ابراهيم المنذر والاستاذ سعيد عقل معاونين لها . وهنا مجال للتنويه بالاستاذ عقل هذا الرجل الوطني الموهوب ذلك لانه تعاون معي في نطاق خدمة المجمع وكان شيئا لم يقع من قبل؛ وكرس جريدته الراصد للتكلم بلسانه .

وكانّ اول عمل باشره المجمع بعد ذلك تطبيق نظامه الداخلي الموضوع في العام الفائت بتوزيع تقسيم اعضائه على اربع لجان عهد الى كل منها ان تعمل بجد ونشاط ضمن نطاق المهمة الموكولة اليها وهي :

اللجنة الاولى « الادارية » ومهمتها القيام بالاعمال الادارية ، وتحضير الموازنة المالية كل عام . وكانت تتالف من السادة : محمد جميل بيهم ووديع عقل وابراهيم المنذر .

اللجنة الثانية « اللغوية » ومهمتها التدقيق في وضع الكلمات والمصطلحات للمعاني العلمية الجديدة والمسميات الحديثة . والتعاون مع المجامع العلمية العربية الاخرى توصلا لوضع معجم يوفي حاجة العصر . وكانت تتالف من الشيخ منير عسيران ، والشيخ ابراهيم المنذر والياس بك فياض والشيخ امين تقي الدين .

اللجنة الثالثة « لجنة التاريخ والجغرافيا » وعهد اليها بالاضافة الى التحقيقات التاريخية وضع معجم جغرافي للبنان على اسلوب علمي حديث . وكانت تتالف من الاساتذة اسد رستم . وبولس الخولي . والخولي جرجس ستيتي . والسيد علي الزين ومحمد جميل بيهم .

اللجنة الرابعة « لجنة المخطوطات » وعهد اليها بوضع احصاء عام للمخطوطات العربية في الجمهورية اللبنانية ، وترتيب تدوينها على طريقة علمية تسهيلا لمراجعتها . وكان قوامها الشيخ احمد عمر المحمصاني ، والشيخ عبد الرحمن سلام ، وجرجس بك صفا .

وقد قامت هذه اللجان بما عهد اليها على خير وجه في جو من التعاون والوئام ورفعت الى المجمع تقاريرها لتكون اساسا للبحث والاقرار ، ومن ثم للتنفيذ .

تقرير اللجنة الادارية :

تناول التقرير الاوضاع العلمية والادبية في البلاد العربية ولاسيما لبنان كما تناول انشاء المجمع العلمي اللبناني واعماله منذ نشأته حتى ذلك التاريخ، واشار الى ما عقد العزم على تحقيقه في تلك السنة وما بعدها . ولاسيما في حقل توثيق العلاقات بينه وبين المجامع العربية الاخرى . كما انه اشار الى بعض الدعوات الخارجية التي وردت له، وعلى راسها دعوة المجمع الادبي العام في باريس .

تقرير اللجنة اللغوية :

بعد ان اكد التقرير ضرورة التعاون مع سائر المجامع العلمية العربية ، وبعد ان اشار الى آراء طائفة من اكابر كتاب العرب بشان اصلاح اللغة توصلت اللجنة الى الاستنتاج بأن هؤلاء على خلاف في وجهة المسير . فبينما يقبل بعضهم ما يقرره الافراد المعنيون باللغة فان البعض الآخر كان يرى ان للمجامع وحدها الحق في وضع الكلمات الجديدة. وقال التقرير في التعليق على ذلك بناء على ما تقدم راى المجمع العلمي اللبناني قبل ان يجزم في هذا الشان ان ينتدب رئيسه الحالي الاستاذ جميل بيهم فيقصد مصر . ومصر اليوم قلب العالم العربي النابض ، ويسعى لايجاد صلة بين الهيئات اللغوية والمجامع العلمية في الاقطار العربية تمهيدا لعقد مؤتمر عام يجتمع في كل سنة لاجل التعاون والتفاهم على الطرق السوية لترقية اللغة العربية .

ولقد سافر الاستاذ الرئيس الى مصر فقابل وزير المعارف ، وصاحب الدولة مصطفى النحاس باشا وبسط لهما مهمته فلقي منهما الارتياح التام . ثم اخذ يبث الدعوة بين جمهور المفكرين العاملين . وساعده على ذلك بعض اهل الفضل والوجاهة بما عقدوه من حفلات لهذه الغاية . وقبل مغادرته مصر تالفت لجنة في القاهرة من كبار مفكريها وعلمائها جعلت همها السعي لتحقيق هذه الغاية . ولم يطل العهد حتى نقلت الينا الصحف البشرى بانشاء المجمع المصري للثقافة العلمية وترقية اللغة العربية »

وبعد ان اشار التقرير الى البيان الوافي الذي وضعه سنة 1928 الشيخان عبد الرحمان سلام ، واحمد عمر المحمصاني في كيفية المحافظة على اللغة العربية ، واوجزه بما ورد في الختام : «لذلك نرى ان باب الاشتقاق في اللغة العربية يجب ان يفتح على مصراعيه توصلا الى استخدام الافعال والصفات المتعلقة بها حسب مقتضيات العصر ، فيتسع بذلك مجال الانشاء ، ولا يعاني طلاب العلم والكتاب ما يعانون من المشاق والمصاعب » ومضى يقول : « وسننظر فوق ما تقدم في اصول اللغة ، اي قواعدها الاساسية المتخذة حجة لصحة الكتابة والانشاء . وهي في كل فرع من فروع الصرف والنحو والعروض والبيان وغيرها لا تزال على حالها منذ وضعها الائمة لم يطرح منها باب ، ولا عدلت قاعدة لذلك شق تحصيلها على طلابها لانهم رزحوا تحت اعبائها ، وضاعوا بين المؤلفات الضخمة ، والآراء المتباينة ، والقواعد المعقدة التي يجب ان تطرح من كتب اللغة تسهيلا لتناولها . ولا يخفى ما في تحقيق هذه الامنية من الصعوبة تجاه المتمنتين . ونحن نتوخى في كل حال المحافظة على عظمتها وتعابيرها الشائقة مستعينين باقطابها المدققين العاملين الضاربين في مشارق الارض ومغاربها » .

تقرير لجنة التاريخ والجغرافيا :

اشار التقرير الى اهتمام اللجنة بتاريخ لبنان وجغرافيته ليقف المواطن على احوال بلاده وقوفا صحيحا ويلم بكل ما فيها من المعالم والآثار بالاضافة الى تراجم كبار اللبنانيين الذين تركوا خير ذكر في العلم والادب او الوجاهة مع العمل البناء ثم مضى يقول :

« لما كان العالم العربي في الشرق والغرب في حاجة الى المجامع الكاملة عن بلاده ترى اللجنة ان يعنى المجمع في بدء اعماله ، عناية خاصة ، بوضع معجم جغرافي لجميع البلدان والقرى والمزارع والانهار والجبال في الجمهورية اللبنانية ، وان يكون لهذا المعجم الجغرافي مقدمات عامة في جغرافية لبنان السياسية والاقتصادية والتاريخية مصحوبة ببعض مباحث في جيولوجية لبنان ومناخه ونباته وحيوانه وذلك بالاستعانة بفريق من اساتذة الجامعتين الاميركية والفرنسية في بيروت . فطلبنا الى حضرة الاب هنري لامنس اليسوعي ان يتولى كتابة المقدمة التي تتعلق بجغرافية لبنان التاريخية ، والى الاب جبرائيل لوفتك ان يكتب مقاله في جغرافية الجبل الاقتصادية كما انا رغبنا الى بعض اساتذة الجامعة الاميركية في بيروت ، وهم الفريد داي ، ويوليوي برون ، والدكتور ويليم فانديك الكتابة في جيولوجية لبنان ومناخه وحيواناته ونباته ومياهه . واما القسم الاكبر من العمل في هذا المعجم ، وهو جمع حقائق عامة في الجغرافيا والتاريخ عن البلدان والقرى والمزارع اللبنانية ، وترتيب هذه المباحث وتنسيقها وضبطها فقد شرعت به هذه اللجنة وطبعت جداول تمهيدية لوضع القاموس العام . وفي كل منها حقول متنوعة تتناول المدن والقرى وعدد النفوس فيها ، والمذاهب ، والانهار والينابيع والجبال والمناجم والمعابد والمقامات والمعامل والمعاهد العلمية ، ومواطن الآثار ، واهم الحاصلات الزراعية والمنتوجات الوطنية الى غير ذلك من الشؤون عدا اماكن الاصطياف ، ورفعنا هذه الجداول الى وزارة الداخلية الجليلة لتامر بتوزيعها على المحافظين والمديرين والمختارين في الجمهورية اللبنانية . وقد اعيدت الجداول المذكورة معبأة ، وعهد بها الى هذه اللجنة لتصحيح ما يحتاج التصحيح . ولتنسيقها.»

تقرير لجنة المخطوطات العربية القديمة :

اشار التقرير الى الصعوبات التي تعترض من ينقب عن هذه المخطوطات ، ولاسيما لان اكثرها كان موزعا على مكتبات خاصة لم تعمل بعد ايدي الباحثين للتحري عنها . واكثرها غير معروف ثم بينت اللجنة انها بدات باحصاء ما في مدينة بيروت ، وانها ستشرع من بعد في البحث عما يوجد في غيرها من المخطوطات حتى اذا اكتمل العمل تنظم منه معجما محيطا ليسهل الرجوع اليه على ان يشمل هذا المعجم اشارة الى موضوع كل كتاب . والى الزمن الذي وضع فيه ، واذا كانت له مزية اخرى . وختمت اللجنة التقرير بذكر ما احصته في مكاتب بيروت الكبرى من المخطوطات فكان كما يلي :

مكتبة الجامعة الاميركية :

183 مجلدا و 134 رسالة

مكتبة الآباء اليسوعيين :

245 مجلدا و 44 رسالة

دار الكتب الوطنية :

48	مجلدا	و 20	رسالة
476		198	

وفي هذه المناسبة يطيب لي ان اذكر ان مكتبة المخطوطات في داري تحتوي على 41 مخطوطة بعضها ليس له نسخة ثانية في المكتبات الاخرى .

الى الامام في خدمة العرب والعربية

وقد استمع المجمع الى تقارير لجانه وناقشها ، وحث اعضاءها على المزيد من النشاط حبا بالقيام بالتبعة الملقاة عليهم على خير وجه . وقرر في الجلسة التي عقدها يوم 29 اذار 1929 تكليفي بأن اتصل بالمجمع العلمي العربي بدمشق من اجل التعاون على تحقيق فكرة المؤتمر اللغوي العام الذي كنت دعوت له في مصر فانجزت ما تقرر .

هذا وكانت جريدة البرق نشرت مقالا لصاحبها الاستاذ بشارة الخوري اقترح به على المجمع اكمال دائرة المعارف التي اصدر بعض اجزائها الاستاذ بطرس البستاني قبل حين فرحب المجمع بهذا الاقتراح وفوض الى اثنين من اعضائه : الشيخ عبد الرحمن سلام والاستاذ جرجس صفا ، لدرس هذا الموضوع وليعدم كل منهما تقريرا في الوسائل التي يمكن بها تحقيق هذا الاقتراح . وفضلا عن ذلك فقد قرر انشاء ناد يشتمل على مكتبة عامة ، ومجلة عربية على ان يجعل من هذا النادي دارا للمحاضرات ومحجا لطلاب المعرفة .

الغاء المجمع العلمي اللبناني :

كان بين الاستاذين المحاميين اميل اده والشيخ بشارة الخوري تنافس على الرياسات في عهد الانتداب وبعده . فلما خلف الاستاذ اده الشيخ بشارة على رئاسة الوزارة ، وهو رائد من رواد عدلة لبنان واعتماده على فرنسا لم ترق له اتصالات المجمع العلمي اللبناني بالمجامع العلمية واللغوية العربية . لذلك فوجيء المجمع في عهده بمرسوم صادر عن رئاسة الجمهورية مؤرخ في 3 شباط 1930 يقضي بالغائه تحت ستار التوفير على الخزينة . فكان لهذا المرسوم اثر سيء ، ولا سيما على اعضائه الذين كانوا يوفون الخدمة حقها ، ولا يريدون جزاء ولا شكورا ؛ فقدموا استدعاء الى وزارة الداخلية بطلب الترخيص لهم لمتابعة العمل باسم المجمع المذكور دون الاعتماد المالي . ولكن المجمع اضطر فيما بعد الى التوقف لان مؤسسة كهذه عليها ما عليها من النفقات لا يطول عمرها اذا لم تمدها الحكومات بالمساعدة . ثم ما برح اعضاء المجمع ، الذين كانوا يشعرون بالفراغ ، يطالبون باعادته . وقد استجاب لهم المجلس النيابي عام 1944 . وقرر تخصيص مبلغ من المال لاعادة المجمع . ولكن الحكومات المتتابعة ضربت صفحا عنه فقضى نحبه هكذا قبل القطاف .

حول علم الترسيين (١)

ملكة البيان في نشأة الإنسان

كيف نشأت اللغة في المجتمع البشري؟

الأستاذ خليل عبدالله

المقدمة :

حادثة البيان عند الانسان من الحوادث الغامضة، والمثيرة جدا ، وهي ايضا مغرقة بالتعقيد . لا يكاد انسان اليوم يجد لها جوابا مقنعا .. حيث انها تتعلق بتاريخه الغامض . بعض الشيء ؛ كما يدور حولها تكهنات عديدة ، ويطرح على بساطها عدة اسئلة . هي :

اولا — كيف نطق الانسان الاول وابان من مدركاته ؟..

ثانيا — بأية لغة نطق ؟ ..

ثالثا — هل كان لديه ذخيرة من الالفاظ اطلقها على افراد بيئته بمقتضى الحال ام انه تناول الفاظه من تلك البيئة ؟؟ ..

رابعا — هل كانت تلك اللغة الاولى التي دوت الفاظها على البسيطة هي ام اللغات . واصلها الاصيل؟.. أم ان لكل لغة نبعا مستقلا ؟..

الجواب عن هذه الاسئلة وامثالها . يحتاج الى جهد كبير لكي يوفيها الباحث حقها . ولانها مغرقة في الابهام . عميقة عمق التاريخ . ولابد لمن اراد ان يتحدث عنها من تقصي كل ما قيل عن الانسان الاول. سواء من طريق نقلي او من طريق عقلي . او من طريق علمي ... وبعد استحضار الطرق واستقراء الادلة ، يبقى الراجح منها لبعض عناصر هذا البحث قائما على الاحتمال .

اذن لابد لنا من دراسة ما قاله التاريخ القديم . وما جاءت الكتب السماوية حول هذا الموضوع . كما لابد لنا من ان نحقق فيما وصل اليه علماء اليوم سواء في الجيولوجيا او في الفلك او في النفس او في الحياة والحيوان والنبات او في الفيزيولوجيا والذرة . وما شابه ذلك .. ثم نخرج بنظرية او اكثر حول هذا البحث لعل فيها نفعا للباحثين .. ومتعة للمتفكهين .

النظرة الحيوانية :

لقد درجت اغلب علوم العصر وعلمائه في مختلف المجالات الطبيعية والحياتية والاجتماعية والنفسية والاقتصادية والكونية وغيرها كثير .. على تبني مبدا التطور . والبناء على اساس مذهب التطوريين .. فما هذا المذهب ؟ .. وماذا يقول ؟ .. وما هي نسبة الصواب فيما يقول ؟ ..

يعود هذا المذهب الى النصف الثاني من القرن التاسع عشر عندما اصدر ، دارون — (Darwin كتابه المسمى ، اصل الانواع — سنة 1859 ، ومن ثم كتابه الثاني ، اصل الانسان — سنة 1871 ، . ومن ذلك الزمن تغيرت نظرة الانسان الى نفسه . والى

كونه والى تاريخه .. حيث دوت نظرية دارون معلنة ان الحياة قد تطورت من الخلية الواحدة الى الانسان المعقد .. وهذا الانسان قد تطور من حيوان سابق الى حيوان يشبه الانسان (القرد) الى انسان يشبه الحيوان (الحلقة المفقودة) .. الى الانسان .

ولقد حطمت هذه النظرية كل ثبات فى نظر العلماء والعامة وساعدها عدة عوامل قوية فى ميادين السياسة والحضارة والمعتقدات — لا مجال الى شرحها هنا — وتلقاها الجميع بذهول ثم بكل ترحيب . وحملها العامة والخاصة . العلماء والسوقة . بكل نشوة وعصبية فترة من الزمان ، بدون اعمال العقل وتحكيم الضمير.. وكان الزمان كفيلا باخماد هذه الثورة فى النفوس .. ورجع هؤلاء الناس الى عقولهم . وتناولوا النظرية من جديد ، بحثا وتدقيقا .. فكان منهم من ردها نهائيا. ومنهم من عدل فيها . ومنهم من بقي ينفخ فى رؤوس الناس لقبولها . مستهدفا بعض الغايات .. — او بالاحرى نفس الغايات التي وجدت النظرية بسببها — .

العالم الداروينى الحديث — جوليان هكسلي — يؤمن بالتطور كاستاذه دارون ولكن يخالفه بحيوانية الانسان . ويعتقد ان الانسان متفرد بيولوجيا وسيكولوجيا ويتطور على قاعدته الانسانية الخاصة لا على القاعدة الحيوانية . كما يرفع هكسلي عن الانسان صفة المادية البحت ، ويلفت النظر الى عمل الفطرة الخلاقة فى نفس الانسان (بيولوجيا) وان له خصائص لم تلاحظ فى أي حيوان . ولهذه الخصائص آثار متفردة.

ولنستمع اليه يقول فى كتابه (الانسان فى العالم الحديث) — ترجمة حسن خطاب — « لقد تارجح الانسان كالخطار (البندول) فيما يتعلق بمركزه بالنسبة لبقية الحيوانات ، بين اعجابه الشديد او القليل بنفسه . يفصل بينه وبين الحيوانات هوة سحيقة جدا ، وحينا آخر هوة صغيرة جدا . »

« وبظهور نظرية دارون بدا الخطار (البندول) يتارجح عكسيا ، واعتبر الانسان حيوانا مرة اخرى.. ووصل الخطار شيئا فشيئا الى اقصى مدى تارجحه ، وظهر ما بدا انه النتائج المنطقية لفروض دارون . فالانسان كغيره من الحيوانات . ولذلك فان آراءه فى معنى الحياة الانسانية ، والمثل العليا ، لا تستحق تقديرا اكثر من آراء الدودة الشريطية او بكتريا الباشلس . والبقاء هو المقياس الوحيد للنجاح التطوري . ولذلك فكل الكائنات الحية متساوية القيمة . وليست فكرة التقدم الا فكرة انسانية . ومن المسلم به ان الانسان فى الوقت الحاضر سيد المخلوقات ولكن قد تحل محله القطة او الفار » .

« ولم تصغر الهوة هنا بين الانسان والحيوان ، نتيجة المبالغة فى اعطاء الحيوان صفات الانسانية ، وانما نتيجة التقليل من الصفات الانسانية فى الانسان.. ومع ذلك فقد ظهر منذ عهد قريب اتجاه جديد ، سببه فى الغالب زيادة المعرفة واتساع نطاق التحليل العلمي»

« ان الخطار يتارجح ثانية : وتتسع الهوة بين الانسان والحيوان مرة اخرى .. وبعد نظرية دارون لم يعد الانسان يستطيع تجنب اعتبار نفسه حيوانا (1) ولكنه بدا يرى نفسه حيوانا غريبا جدا . وفى حالات كثيرة لا مثيل له . وتحليل تفرد الانسان من الناحية البيولوجية لم يبلغ تمامه بعد .. وما هذا المقال الا محاولة لعرض مركزه الحالي ...

« واول خصائص الانسان الفذة ، واعظمها وضوحا . قدرته على التفكير التصوري — التخيل — ولقد كان لهذه الخاصية الاساسية فى الانسان نتائج كثيرة .. وكان اهمها نمو التقاليد المتزايدة — الناشئة من رصيد التجارب الانسانية — ومن اهم نتائج تزايد التقاليد — او اذا شئت من اهم مظاهره الحقيقية — ما يقوم به الانسان من تحسين فيما لديه من عدد وآلات .. وان العدد والتقاليد لهي الخواص التي هيات للانسان مركز السيادة بين سائر الكائنات الحية ... وهذه السيادة « البيولوجية » — فى الوقت الحاضر — خاصية اخرى من خواص الانسان الفذة » (ص 5/3)

وهكذا يضع علم الحياة — الانسان — فى مركز مماثل لما انعم به عليه كسيد المخلوقات .. كما تقول الاديان .. (2) » .

« ولقد ادى الكلام والتقاليد والعدد الى كثير من خواص الانسان الاخرى التي لا مثيل لها بين المخلوقات الاخرى ، ومعظمها واضح معروف » .

« والانسان لا مثيل له ايضا كنوع مسيطر . اذا انتسبت كل الانواع الاخرى المسيطرة الى مئات وآلاف كثيرة من الانواع المنفصلة ، وتجمعت فى أجناس

وفصائل عديدة ومجموعات اكبر . اما الانسان فانه حافظ على سيادته من غير انقسام . ولقد تم تنوع سلالات الانسان في حدود نوع واحد .

« واخيرا فان الانسان لا مثيل له بين الحيوانات الراقية في طريقة تطوره .

« وللانسان خاصية اخرى بيولوجية ؛ وهي تفرد تاريخ تطوره .. ونحن الآن في مركز يسمح لنا بتعريف تفرد الانسان في تطوره . واما خاصية الانسان الجوهرية ككائن حي مسيطر فهي « التفكير المعنوي ».

ولقد كان بحثنا حتى الآن بطريقة عامة في خصائص الانسان من ناحية التطور والمقارنة . والآن نعود اليها . ونبحث فيها وفي نتائجها بشيء من الاسهاب .فاولا يجب الا يعزب عن بالنا ، ان الفرق بين الانسان والحيوان في العقل اعظم بكثير مما نظن عادة .. وكلنا على علم بقوة الغريزة في الحشرات . ولكنها تبدو عاجزة عن معرفة طرق جديدة . وليست الثدييات بافضل من ذلك .. بينما للتفكير عند الانسان اهمية بيولوجية كبرى حتى عندما تسود تفكيره العادة والمحاولة والخطا . ولابد ان يكون سلوك الحيوانات عرفيا — اي انه ثابت في حدود ضيقة — اما الانسان فقد اصبح في سلوكه حرا نسبيا .. حرا في الاخذ والعطاء على حد سواء .. ولهذه الزيادة في المرونة نتائج اخرى سيكولوجية يتناساها رجال الفلسفة العقلية .. والانسان ايضا مريد في بعضها . فقد ادت هذه المرونة مثلا الى كون الانسان الكائن الحي الوحيد ، الذي لابد له ان يتعرض الى الصراع النفسي .. ومع ذلك فطبقا للآراء الحديثة توجد في الانسان اجهزة لتقليل النزاع الى اقصى حد ؛ وهي التي يعرفها علماء النفس بالكبت والقمع .

« وهذه الخواص التي امتاز بها الانسان ، والتي يمكن تسميتها — نفسية — اكثر منها — بيولوجية — تنشأ من خاصية او اكثر من الخواص الثلاث الآتية :

الاولى : قدرته على التفكير العام والخاص .

الثانية : التوحيد النسبي لعملياته العقلية، بعكس انقسام العقل والسلوك عند الحيوان .

الثالثة : وجود الوحدات الاجتماعية مثل القبيلة والامة والحزب والجماعة الدينية وتمسك كل منها بتقاليدها وثقافتها . (ص 32)

« وهناك نتائج ثانوية كثيرة لتطور العقل من مرحلة ما قبل الانسان الى مرحلة الانسان (3) وهي بلاشك مريدة من الناحية البيولوجية . ولنذكر منها العلوم الرياضية والمواهب الموسيقية ، والتقدير والابداع الفنيين ، والدين ، والحب المثالي ..

« ولكن لا يكفي هنا ان نحصي بعض اوجه النشاط . ففي الحقيقة ان معظم اوجه النشاط الانساني وخواصه ، نتائج ثانوية لخواصه الاصلية . وكذلك فهي مفيدة من الناحية البيولوجية .. وقد يكون لتفرد الانسان نتائج ثانوية اخرى لم تستغل بعد ..

« وبذلك يكون الانسان مريدا في احواله اكثر مما نظن الآن » انتهى كلام هسكلي .

واما العالم الامريكي : « ا . كريسي موريسون » فانه يرد على نظرية (النشوء والارتقاء) ردا عليما ويستبعد بالكلية اي ارتباط بين الانسان وبين الحيوان كما انه يستنكر ان يقوم الانسان هكذا لوحده ابتداء من الخلية وعلى مبدا الصدفة ولنقرا ما كتب هذا العالم في كتابه (Man does not stand alone) الذي ترجمه الى العربية محمود صالح الفلكي بعنوان (العلم يدعو الى الايمان) :

« ان القائلين بنظرية التطور (النشوء والارتقاء) لم يكونوا يعلمون شيئا عن وحدات الوراثة (الجينات) (ص 145) .

« لقد راينا ان « الجينات » متفق على كونها تنظيمات اصغر من الميكروسكوبية للذرات في خلايا الوراثة بجميع الكائنات الحية . وهي تحفظ التصميم، وسجل السلف ، والخواص التي لكل شيء حي . وهي تتحكم تفصيلا في الجذر والجذع والورق والزهر والثمر لكل نبات ، تماما كما تقرر الشكل والتشعر والشعر والاجنحة لكل حيوان بما فيه الانسان » (ص 147) .

... « ويلاحظ ان جميع الكائنات الحية ، منفصل بعضها عن بعض بهوات كثيفة لا يمكن عبورها . حتى ان الحيوانات المتقاربة ينفصل بعضها عن بعض كذلك » .

« والانسان حيوان من رتبة الطليمة ، وتكوينه يشبه فصائل (السيميا) — الاورنجتان والغوريلا

والشمبانزي — ولكن هذا الشبه الهيكلي ليس بالضرورة برهانا على اننا من نسل اسلاف سيمائية ، من القرود ، او ان تلك القرود هي ذرية منحطة للانسان . ولا يمكن احد ان يزعم ان سمك القد (Cod) قد تطور من سمك الحساس (Haddock) وان يكن كلاهما يسكن المياه نفسها ، ويأكل الطعام نفسه ، ولهما عظام تكاد تكون متشابهة ... (ص 142) .

« ان ارتقاء الانسان الحيواني الى درجة كائن مفكر شاعر بوجوده هو خطوة اعظم من ان تتم عن طريق التطور المادي ، ودون قصد ابتدامي .

واذا قبلت واقعية القصد ، فان الانسان بوصفه هذا قد يكون جهازا .. ولكن ما الذي يدير هذا الجهاز؟ . لانه بدون ان يدار ، لا فائدة منه والعلم لا يعلل من يتولى ادارته . وكذلك لا يزعم انه مادي .

« لقد بلغنا من التقدم درجة تكفي لان نوقن بان الله قد منح الانسان قبسا من نوره ، ولا يزال الانسان في طور طفولته من وجهة الخلق ، وقد بدا يشعر بوجود ما يسميه (بالروح) وهو يرقى في بطء ليدرك هذه الهبة ، ويشعر بغريزته بانها خالدة .

« واذا صح هذا التعليل — ويبدو ان المنطق الذي يسنده لا يمكن دحضه — فان هذه الكرة الارضية الصغيرة التي لنا ، وربما غيرها كذلك ، تكتسب اهمية لم يحلم بها احد من قبل . فعلى قدر ما نعلم قد تولد عن عالمنا الصغير هذا ، اول جهاز مادي اضيف اليه من نور الله . وهذا يرفع الانسان من مرتبة الغريزة الحيوانية الى درجة القدرة على التفكير ، التي يمكن بها الآن ان يدرك عظمة الكون في اتساعاته ، ويشعر شعورا غامضا بعظمة الله ماثلة في خلقه . (ص 187 — 188) .

« ان اية ذرة او جزئية Atom, Molecule لم يكن لها ذكر قط ، واي اتحاد للعناصر لم يتولد عنه راي ابدا . واي قانون طبيعي لم يستطع بناء كاتدرائية . ولكن كائنات حية معينة قد خلقت تبعا لحوافز معينة للحياة هذه الكائنات تنتظم شيئا تطيعه جزئيات المادة بدورها . ونتيجة هذا وذاك كل ما نراه من عجائب العالم . فما هو هذا الكائن الحي ؟ .. هل هو عبارة عن ذرات وجزئيات ؟ اجل .. وماذا ايضا ؟ شيء غير ملموس ، اعلى كثيرا من المادة لدرجة انه يسيطر على كل شيء ومختلف جدا عن كل ما هو مادي مما صنع منه العالم ، لدرجة انه لا يمكن رؤيته ولا وزنه ولا قياسه . وهو فيما نعلم ليست له قوانين تحكمه . ان روح الانسان هي سيدة مصيره ، ولكنها تشعر بصلتها بالمصدر الاعلى لوجودها . وقد اوجدت للانسان قانونا للاخلاق لا يملكه اي حيوان آخر ، ولا يحتاج اليه . فاذا سمى احد ذلك الكيان بانه مضلة لتكوينات المادة ، لا لشيء سوى انه لا يعرف كنهه بانبوبة الاختبار ، فهو انما يزعم زعما لا يقوم عليه برهان .. انه شيء موجود ، يظهر نفسه باعماله ، وبتضحياته وبسيطرته على المادة ، وبالاخص بقدرته على رفع الانسان المادي من ضعف البشر وخطئهم الى الانسجام مع ارادة الله .. هذه هي خلاصة القصد الرباني . وفيها تفسير للاشتياق الكامن في نفس الانسان للاتصال باشياء اعلى من نفسه . وفيها كشف عن اساس حافزه الديني .. وهذا هو الدين » .. (ص 201 — 202) .

واما عالم الحياة (الكسيس كاريل) فانه يعتبر ان الانسان حدث فذ مميز وعالم فرد ليس له مثيل على ارضنا هذه ، كما يعتبر اننا لا نعلم شيئا عن هذا الانسان المجهول المعقد ، وذلك في كتابه (الانسان ذلك المجهول) وقد عربه السيد شفيق اسعد فريد .

ولننقل الآن بعض هذه المعاني :

« هناك تفاوت عجيب بين علوم الجماد وعلوم الحياة .. فعلوم الفلك والميكانيكا والطبيعة ، تقوم على آراء يمكن التعبير عنها ، بسداد وفصاحة ، باللغة الحسابية وقد انشات هذه العلوم عالما متناسقا كتناسق آثار اليونان القديمة . انها تنسج حول هذا العالم نسيجا رائعا من الاحصاءات والنظريات .

« بيد ان موقف علوم الحياة يختلف عن ذلك كل الاختلاف ، حتى ليبدو وكان الذين يدرسون الحياة قد ضلوا طريقهم في غاب متشابك الاشجار ، او انهم في قلب دغل سحري ، لا تكف اشجاره التي لا عداد لها عن تغيير اماكنها واحجامها فهم يرزحون تحت عبء اكداس من الحقائق ، التي يستطيعون ان يصفوها ، ولكنهم يعجزون عن تعريفها او تحديدها في معادلات جبرية . فمن الاشياء التي تراها العين في عالم الماديات، سواء كانت ذرات ام نجوما صخورا ام سحبا ، صلبا ام ماء .. امكن استخلاص خواص معينة كالثقل والابعاد الاتساعية .. وهذه المستخلصات — وليست

الحقائق العلية ــ هي مادة التفكير العلمي .. ملاحظة الاشياء تبدنا فقط بأقل صور العلم شأنا ، ونعني بها الصورة الوصفية . فالعلم الوصفي يرتب الظواهر . بيد ان العلاقات التي لا تتغير بين الكميات غير القابلة للتغيير ــ اي القوانين الطبيعية ــ تظهر فقط عندما يصبح العلم اكثر معنوية . وما ذلك النجاح العظيم السريع الذي نراه في علمي الطبيعة والكيمياء الا لانهما علمان معنويان كميان . فعلى الرغم من انهما لا يدعيان انهما يكشفان القناع عن الطبيعة النهائية للاشياء فانهما يمدانا بقوة التنبؤ بحوادث المستقبل . وتقرير كيفية وقوعها طبقا لارادتنا . وبتعلمنا سر تركيب المادة وخواصها استطعنا الظفر بالسيادة تقريبا على كل شيء موجود على ظهر البسيطة فيما عدا انفسنا ..

« ولكن علم الكائنات الحية بصفة عامة ــ والانسان بصفة خاصة ــ لم يصب مثل هذا التقدم.. انه لا يزال في المرحلة الوصفية .. فالانسان كل لا يتجزا . وفي غاية التعقيد . ومن غير الميسور الحصول على عرض بسيط له . وليست هناك طريقة لفهمه في مجموعه أو في اجزائه ؛ في وقت واحد . كما لا توجد طريقة لفهم علاقاته بالعالم الخارجي .

« ولكي نحلل انفسنا فاننا مضطرون الى الاستعانة بفنون مختلفة . والى استخدام علوم عديدة.. ومن الطبيعي ان تصل كل هذه العلوم الى راي مختلف في غايتها المشتركة . فانها تستخلص من الانسان ما تمكنها وسائلها الخاصة من بلوغها فقط . وبعد ان تضاف هذه المستخلصات بعضها الى بعض . فانها تبقى اقل غناء من الحقيقة الصلبة .. انها تخلف وراءها بقية عظيمة الاهمية ؛ بحيث لا يمكن اهمالها

.. « اننا لا نفهم الانسان ككل .. اننا نعرفه على انه مكون من اجزاء مختلفة وحتى هذه الاجزاء ابتدعتها وسائلنا . فكل واحد منا مكون من موكب من الاشباح

تسير في وسطها حقيقة مجهولة ..

« وواقع الامر ان جهلنا مطبق . فاغلب الاسئلة التي يلقيها على انفسهم اولئك الذين يدرسون الجنس البشري **تظل بلا جواب** ؛ لان هناك مناطق غير محدودة من دنيانا الباطنية ؛ ما زالت غير معروفة . فنحن لا نعرف حتى الآن ؛ الاجابة عن اسئلة كثيرة مثل :

كيف تتحد جزئيات المواد الكيماوية لكي تكون المركب والاعضاء المؤتلفة للخلية ؟.

كيف تقرر « الجنيس » ــ ناقلات الوراثة ــ في نواة البويضة الملقحة ؛ صفات الفرد المشتقة من هذه البويضة ؟؟ .

كيف تنتظم الخلايا في جماعات من تلقاء انفسها مثل الانسجة والاعضاء ؟ فهي كالنمل والنحل تعرف مقدما الدور الذي تدر لها ان تلعبه في حياة المجموع، وتساعد العمليات الميكانيكية الخفية على بناء جسم بسيط ومعقد في الوقت ذاته .

« ما هي طبيعة تكويننا النفساني والفسيولوجي؟ اننا نعرف اننا مركب من الانسجة والاعضاء ، والسوائل والشعور . ولكن العلاقات بين الشعور والمخ ما زالت لغزا . اننا ما زلنا بحاجة الى معلومات كاملة تقريبا عن فسيولوجية الخلايا العصبية .. الى اي مدى تؤثر الارادة في الجسم ؟ كيف يتاثر العقل بحالة الاعضاء ؟ على اي وجه تستطيع الخصائص العضوية العقلية التي يرثها كل فرد ان تتغير بواسطة طريق الحياة والمواد الكيماوية الموجودة في الطعام والمناخ ، والنظم النفسية والادبية ؟ .

« اننا ما زلنا بعيدين جدا عن معرفة ماهية العلاقات الموجودة بين الهيكل العظمي والعضلات والاعضاء . ووجوه النشاط العقلي والروحي .. وما زلنا نجهل العوامل التي تحدث التوازن العصبي ، ومقاومة التعب ؛ والكفاح ضد الامراض .

« اننا لا نعرف كيف يمكن ان يزداد الاحساس الادبي . وقوة الحكم ؛ والجراة .. ولا ماهي الاهمية النسبية للنشاط العقلي والادبي .. كذلك النشاط الديني

« اي شكل من اشكال النشاط مسؤول عن تبادل الشعور او الخواطر ؟..

« لاشك مطلقا في ان عوامل فسيولوجية وعقلية هي التي تقرر السعادة او التعاسة ، النجاح او الفشل .. ولكننا لا نعرف ما هي هذه العوامل .. اننا لا نستطيع ان نهب اي فرد ذلك الاستعداد لقبول السعادة بطريقة مصنعية .

« وحتى الآن فاننا لا نعرف اي البيئات اكثر صلاحية لانشاء الرجل المتمدين وتقدمه .

« هل في الامكان كبت روح الكفاح والمجهود ، وما قد نحس به من عناء بسبب تكويننا الفسيولوجي والروحي ؟؟

« كيف نستطيع ان نحول دون تدهور الانسان وانحطاطه في المدنية العصرية ؟

وهناك اسئلة اخرى لا عداد لها ، يمكن ان تلقى في موضوعات تعتبر في غاية الاهمية بالنسبة لنا .. ولكنها ستظل جميعا بلا جواب .. فمن الواضح ان جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الانسان ، غير كاف ، وان معرفتنا بانفسنا ما زالت بدائية في الغالب ... » (ص 13 – 18) .

« ان معرفة نفوسنا لن تصل ابدا الى تلك المرتبة من البساطة المعبرة ، والتجرد والجمال ، التي بلغها علم المادة . اذ ليس من المحتمل ان تختص العناصر التي اخرت تقدم علم الانسان .. فعلينا ان ندرك بوضوح ان علم الانسان « هو اصعب العلوم جميعا » .

« ان الفردية جوهرية في الانسان . انها ليست مجرد جانب معين من الجسم اذ انها تنفذ الى كل كياننا .. وهي تجعل « الذات » حدثا فريدا في تاريخ العالم.. انها تطبع الجسم والشعور . كما تطبع كل مركب في الكل بطابعها الخاص . وان ظلت غير منظورة .. » (ص 281) انتهى كلام كاريل .

هذا نموذج مصغر من الرد العلمي للنظرية القائلة بحيوانية الانسان ، واما من وجهة النظر السياسية فللنظرية فيها ميدان لا يستهان به الخصه فيما يلي :

ان حيوانية الانسان هذه – كما يزعمون – لها اصل اصيل في احد الكتب المقدسة لدى الطوائف اليهودية .. ولكنها حيوانية تختص فقط بالاميين غير اليهود ، فاليهودي هو الانسان فقط ، وهو من نسل ابيه آدم الذي خلقه الله بيده ، واما غير اليهودي فهو من اصل حيواني قد طوره الله الى شكل الانسان لكي يكون جديرا بخدمة شعب الله المختار ، هذا وقد اختلف الحاخامات حول اصل الاميين (غير اليهود) فقال بعضهم : من نطفة حصان ، وبعضهم قال من نطفة كلب وبعضهم وبعضهم .. ولكن (دارون) كان اذكى واعلم بالحيوان فوجد ان القرود هي اقرب هيكلا الى الانسان من غيرها من الحيوانات فانتشرت نظريته .

والتلمود يوحي لمن يقرأه بانه كتاب الهيمنة المنشودة لدى اليهود على سائر الجنس البشري ، ولما كان هذا الامر شاقا وعسيرا ، اصبح لابد من اقناع الاميين بنظرياته وتعاليمه .. فكان ما قرره – ظنا – دارون من طريق استقرائي ناقص نظرية البسها مسوح العلم ، واوهم بها العالم على انها يقينية لا ترد .

ولكن ما علاقة دارون باليهودية وما علاقته بحيوانية الانسان الامي التي جاءت في كتاب قديم جدا لليهود ؟؟

ان دارون كان على خط التلمودية الحديثة (الصهيونية) من حيث يدري او من حيث لا يدري ... والوثائق تشير كما اشارت الوقائع بأن دارون كان يسير بموجب ايحاءاتها .

وهذا ما قرأناه في المقررات التي اتخذتها الجمعيات الصهيونية العالمية في مؤتمر – بال – عام 1897 .

وقد جاء في البروتوكول الثاني لهذه المقررات ما يلي :

.. « ان الطبقات المتعلمة ستختال زهوا امام نفسها بعلمها . وستأخذ جزافا في مزاولة المعرفة التي حصلتها من العلم الذي قدمه اليها وكلاؤنا – رغبة في تربية عقولها حسب الاتجاه الذي توخيناه – .

« لا تتصوروا ان تصريحاتنا كلمات جوفاء . ولاحظوا هنا ان نجاح دارون Darwin وماركس Marx ونيتشه Nietsche قد رتبناه من قبل . والاثر غير الاخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الامي (غير اليهودي) سيكون واضحا لنا على التأكيد » (4).

ودارون لم يفعل شيئا سوى انه فلسف حيوانية الانسان التي وردت في التلمود في مواضع عديدة نجتزىء ببعضها في سطور :

« جاء في تلمود اورشليم ان النطفة التي خلقت منها بقية الشعوب الخارجين عن الديانة اليهودية هي نطفة حصان ..

« الامم الخارجة عن دين اليهود ليست كلابا فقط بل حميرا ايضا . وقال الحاخام ـ ابار بانيل ـ : ان الشعب المختار هو الذي يستحق الحياة الابدية واما باقي الشعوب فمثلهم كمثل الحمير . ولا قرابة بين اليهود وبين الامم الخارجة عن الدين اليهودي لانهم اشبه بالحمير ، وبيوت عبادة باقي الامم يعتبرها اليهود كزرائب الحيوانات وقال الحبر مناحم : ايها اليهود ، انكم من بني البشر لان ارواحكم مصدرها روح الله . واما باقي الامم فليست كذلك لان ارواحهم مصدرها الروح النجسة .

« وكان هذا راي الحاخام ـ اريل ـ ايضا لانه كان يعتبر الخارجين عن الدين اليهودي خنازير نجسة تسكن الغابات . فالخارج عن دين اليهود حيوان على وجه عام . سمه كلبا او حمارا او خنزيرا .. والنطفة التي هو منها هي نطفة حيوان .

« وقال الحاخام ـ ابار بانيل ـ المراة غير اليهودية هي من الحيوانات وقد خلق الله الاجنبي على هيئة الانسان ليكون لائقا لخدمة اليهود الذين خلقت الدنيا من اجلهم ، لانه لا يناسب الاسير ان يخدمه ليلا ونهارا حيوان على صورته الحيوانية كلا . فهذا مناف للذوق والانسانية .

« فاذا مات خادم يهودي او خادمة وكانا من المسيحيين فلست ملزما بان تقدم له التعازي باعتباره فقط انسانا ، بل باعتباره فقط حيوانا من الحيوانات المسخرة » (5) .

اذن فحيوانية الانسان التي نادى بها التطوريون هذا منطلقنا .. ولابد للصهيونية التلمودية التي تبغي السيطرة على العالم من ان تثبت هذا في اذهان الناس بطريق سحري تقبله العقول الغسيلة وجماهير الناس لتنطلق بهذا المفهوم بكل حرية محطمة قيود القيم الثابتة والاخلاق السامية والرسالات القومية .. وتعيش بالتالي كالحيوانات ، تاكل وتتمتع بانواع الشهوات واللذائذ بلا رقيب ولا حسيب . وعندما تصل هذه الحيوانات ـ بالتشبه ـ الى درجة الفوضى والضياع يسهل قيادها وتلين قناتها لارباب الصهيونية

وبعد ، فالزعم القائل بحيوانية الانسان وتطوره من الخلية الواحدة ، هو زعم فاسد ولا رصيد له من الواقع ، وقد رده العلم والعقل معا .. وعليه فهو غير جدير بان يكون اساسا لبحث ، ميزة البيان في شان الانسان ، او غيره من الابحاث العلمية الجادة الهادفة.

ونتيجة لهذا البحث العلمي يتقرر معنا الآتي .. :

1 ـ الانسان مخلوق فذ .

2 ـ حادثة وجود الانسان على الارض حادثة فذة غير مكررة .

3 ـ الانسان متميز عن الحيوان نفسيا وجسديا .

4 ـ لا تماثل بين الانسان والحيوان والشبه العضوي او الهيكلي ليس دليلا على كون احدهما من الآخر .

5 ـ الفطرة ثابتة عند الانسان منذ كانت وان تغيرت صور الدوافع فيها .

6 ـ ويمتاز بـ ، التفكير التصوري ،

7 ـ ولديه امكانيات اجتماعية واقتصادية وسياسية كامنة في فطرته منذ كان .

وهذا يعني ان الانسان وجد دون مقدمات ويتمتع بنفس الميزات التي لديه الآن ـ وان تغيرت وتطورت مظاهرها الخارجية وصورها ـ وميزة البيان من الميزات العديدة التي تميز الانسان عن الحيوان ... ولما كان هذا شان الانسان اصبح من الضروري ان يكون ناطقا مدركا ، اي مبينا ، منذ وجوده الاول لكي يعبر عن مكنونات فطرته ويبين بواسطتها عن احساساته ومدركاته ، ويحقق بموجبها غاية وجوده .

فكيف نطق الانسان الاول فهذا ما سوف نحقق فيه الى جانب تثبيت ما تنتج معنا في هذا الفصل . وذلك عند استنطاق التاريخ بما فيه من روايات مختلفة . في الفصل الثاني :

النظرة التاريخية :

لو عدنا الى اعماق التاريخ لنسأل عن الانسان وكيف كان ؟ .. فسوف نجد ضالتنا المنشودة .. وذلك بالرغم من تضارب الروايات واختلاف الاخبار .. الا اننا نلمح من خلالها خطا عريضا ينتظم الكل ، مع بعض التفرعات . كما نلمح واديا عميقا تسير في شعبه فكرة واضحة عن نشاة الانسان .

فالاخبار التي تناقلها نسابو العرب في الجزيرة العربية وغيرها تشبه الى حد كبير ما نقله المؤخون الفرس ، وهذه بالتالي قد تختلف كثيرا وخاصة في اصولها عما حكاه اهل التوراة (في العهد القديم) .. وهذه وتلك وهاتيك تكاد تكون مماثلة لاخبار الامم السابقة التي ذكرها القرآن الكريم ونصوص السنة النبوية .

ولقد استطاع المؤرخون العظام في ظل الدولة الاسلامية وفي قمة العصور الذهبية للفكر والتاليف ، امثال ابن الاثير وابن جرير الطبري وابن كثير وابن عساكر وابن خلكان وابن خلدون وغيرهم كثير ... ان يجمعوا الروايات المختلفة والاخبار المتضاربة عن تاريخ البشرية ونشاة الانسان فحققوا فيها تحقيقا علميا دقيقا ووضعوا بين ايدينا الراي الراجح والخط الواضح لنشاة الانسان .

وسوف نكتفي بتتبع بعض النصوص التاريخية المأخوذة عن تاريخ واحد من اوثق التواريخ . عن تاريخ الرسل والملوك (6) لمؤلفه ابي جعفر محمد بن جرير الطبري (224 — 310 هـ) . هذا التاريخ الذي بنى عليه وعلى امثاله مؤرخو اليوم كثيرا من مؤلفاتهم وتواريخهم وابحاثهم التاريخية .

قال ابن جرير في معرض كلامه عن استكبار ابليس في الارض وهلاكه :

« وقد قيل : ان سبب هلاكه ، كان من اجل ان الارض كان فيها قبل آدم الجن ، فبعث الله ابليس قاضيا يقضي بينهم ، فلم يزل يقضي بينهم بالحق الف سنة حتى سمي حكما ، وسماه الله به ، واوحى اليه اسمه ، فعند ذلك دخله الكبر ، فتعاظم وتكبر ، والقى بين الذين كان الله بعثه اليهم حكما ، البأس والعداوة والبغضاء ، فاقتتلوا عند ذلك في الارض الفي سنة فيما زعموا ، حتى ان خيولهم تخوض في دمائهم ، قالوا : وذلك قول الله تبارك وتعالى : (امعيينا بالخلق الاول بل هم في لبس من خلق جديد — سورة ق 15) وقول الملائكة : (اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء — البقرة 30) فبعث الله تعالى عند ذلك نارا فاحرقتهم . قالوا : فلما راى ابليس ما نزل بقومه من العذاب عرج الى السماء ، فاقام عند الملائكة يعبد الله في السماء مجتهدا ، لم يعبده شيء من خلقه مثل عبادته ، فلم يزل مجتهدا في العبادة حتى خلق الله آدم، فكان من امره ومعصيته ربه ما كان » (ص 88 ج 1)

وفي معرض القول عن خلق آدم عليه السلام :

« وكان مما حدث في ايام سلطانه وملكه (يعني ابليس) خلق الله — تعالى ذكره — ابانا آدم ابا البشر ، وذلك لما اراد جل جلاله ان يطلع ملائكته على ما قد علم من انطواء ابليس على الكبر ولم يعلمه الملائكة ، واراد اظهار امره لهم حين دنا امره للبوار وملكه وسلطانه للزوال ، فقال — عز ذكره — لما اراد ذلك للملائكة : (اني جاعل في الارض خليفة) فاجابوه بان قالوا له : (اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء — البقرة 30) فروى عن ابن عباس ان الملائكة قالت ذلك كذلك للذين قد كانوا عهدوا من امر الجن كانوا سكان الارض قبل ذلك ، فقالوا لربهم جل ثناؤه لما قال لهم : (اني جاعل في الارض خليفة) اتجعل فيها من يكون فيها مثل الجن الذين كانوا فيها ، فكانوا يسفكون الدماء ويفسدون فيها ويعصونك ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، فقال الرب — تعالى ذكره — لهم : (اني اعلم ما لا تعلمون) يقول : اعلم ما لا تعلمون من انطواء ابليس على التكبر ، وعزمه على خلافه امري ، وتسويل نفسه له الباطل وافتراره وانا مبد لكم منه لترووا ذلك منه عيانا ..

« فلما اراد الله عز وجل ان يخلق آدم عليه السلام امر بتربته ان تؤخذ من الارض .. كما حدثنا ابو كريب قال حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، عن ابي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، قال : ثم امر — يعني الرب تبارك وتعالى — بتربة آدم فرفعت ، فخلق الله آدم من طين لازب — واللازب اللزج الطيب — من حما مسنون ، منتن ، قال : وانما كان حما مسنونا بعد التراب ، قال: فخلق منه آدم بيده » — ص 89 — 90 ج 1 —

« حدثنا ابن حميد قال : حدثنا يعقوب القمي عن جعفر بن ابي المغيرة عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس ، قال : بعث رب العزة — عز وجل — ابليس، فاخذ من اديم الارض ، من عذبها وملحها ، فخلق منه آدم ، ومن ثم سمي آدم ، لانه خلق من اديم الارض ، ومن ثم قال ابليس : (اأسجد لمن خلقت طينا — الاسراء 61) اي هذه الطينة انا جئت بها . » — ص 90 / 91 ج 1 —

« وذكر ان الله تعالى ذكره لما خمر طينة آدم تركها اربعين ليلة ، وقيل اربعين عاما جسدا ملقى » — ص 92 ج 1 —

« فلما نفخ فيه الروح انتهه الروح من قبل راسه. فيما ذكر عن السلف قبلنا انهم قالوه .. » — ص 94 ج 1 .

« ثم علم الله — عز وجل — آدم الاسماء كلها . واختلف السلف من اهل العلم قبلنا فى الاسماء التى علمها آدم : اخاصا من الاسماء علم . ام عاما ؟ فقال بعضهم : علم اسم كل شيء .. » ص 96 ج 1 .

« حدثنا ابن وكيع ، قال: حدثنا ابي ، عن سفيان عن خصيف، عن مجاهد : (وعلم آدم الاسماء كلها ، قال : علمه اسم كل شيء .. » ص 93 ج 1 .

« حدثنا بشر بن معاذ ، حدثنا يزيد بن زريع . عن سعيد ، عن قتادة : قوله عز وجل : (وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال : انبئوني باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . قالوا : سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا ، انك انت العليم الحكيم) قال : يا آدم انبئهم باسمائهم » ، فانبأ كل صنف من الخلق باسمه ، والجاء الى جنسه » . (98)

« وقد قيل : ان الله جل جلاله قال ذلك للملائكة لانه جل جلاله لما ابتدا فى خلق آدم قالوا فيما بينهم : ليخلق ربنا ما شاء ان يخلق ، فلن يخلق خلقا الا كنا اعلم منه ، واكرم عليه منه ، فلما خلق آدم عليه السلام وعلمه اسماء كل شيء عرض الاشياء التى علم آدم اسماءها عليهم ، فقال لهم : انبئوني باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين فى قيلكم : ان الله لم يخلق خلقا الا كنتم اعلم منه ، واكرم عليه منه » (ص 100 ج 1)

هذه النصوص عينة بسيطة من النصوص التاريخية التي تكاد تتفق جميعها على خط واحد ، هو ان الله — جل ذكره — تلك القوة العظمى الفاعلة فى هذا الكون فيما ندرك وفيما لا ندرك ، والتي لا يعقل شيء البتة بدونها ، كما لا تعقل نتيجة ما بدون مقدمات ، ولا معلول بدون علة ، ولا بناء بدون بناء، ولا مخلوق يتصف بالبداية والنهاية بدون خالق يتصف بالقدم والازلية .. اقول هو ان الله — جل ذكره — اراد ان يخلق .. فخلق .. فكان آدم ابو البشر باحسن الصور وافضل الصفات العقلية والجسدية التي تخوله القيام بمهام الخلافة فى الارض وعمارتها ، لذلك كان — منذ كان — بشرا سويا مدركا مفكرا ناطقا له عينان ينظر بهما وله اذنان يسمع بهما وله انف يشم به وله لسان ينطق به وله يدان يبطش بهما ورجلان يمشي عليهما لاكتساب معيشته وتحقيق غاية وجوده .

ولكن هذه النصوص قد اعتمدت على النقل — غالبا — ولم تعالج الفكرة من وجهة عقلية . فهل **عندنا من نص تاريخي يتكلم فى عقلانية هذا الموضوع؟؟** لنرجع اذن ، الى العالم الفذ والمؤرخ الفيلسوف ، واضع علم الاجتماع ، واستاذ من كتب فيه من بعده.. الى البحاثة المسلم ابن خلدون .. حيث يؤمن بما آمن به غيره من المؤرخين بان الله هو الذي خلق آدم وان آدم خلق كاملا ، واودعت فيه فطرة معينة تميزه عن غيره من المخلوقات كما له صفات نفسانية لا يتمتع بها اي حيوان آخر ويتجلى ذلك بالتفكير والتصور الذين يتمتع بهما الانسان .. كما تجعله هذه الفطرة اجتماعيا يالف الآخرين لينظم مجتمعه وبيئته على ضوء هديها.

قال ابن خلدون فى مقدمة تاريخه : (7) .

« الفصل الاول من الكتاب الاول فى العمران البشري على الجملة وفيه مقدمات » (الاولى) فى ان الاجتماع الانساني ضروري ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم : **الانسان مدني بالطبع** ، اي لابد له من الاجتماع الذي هو المدنية فى اصطلاحهم . وهو معنى العمران وبيانه ان الله سبحانه خلق الانسان ، وركبه على صورة لا يصح حياتها وبقاؤها الا بالغذاء . وهداه الى التماسه بفطرته وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله ، الا ان قدرة الواحد من البشر قاصرة من تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غير مولية له بمادة حياته منه ، ولو فرضنا منه اقل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة مثلا فلا يحصل الا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ ، وكل واحد من هذه الاعمال الثلاثة يحتاج الى مواعين وآلات لا تتم الا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفاخوري . هب انه ياكله حبا من غير علاج فهو ايضا يحتاج فى تحصيله حبا الى اعمال اخرى اكثر من هذه من الزراعة والحصاد والدراس الذي يخرج الحب من غلاف السنبل. ويحتاج كل واحد من هذه الى آلات متعددة وصنائع كثيرة اكثر من الاولى ويستحيل ان تولى بذلك كله او بعضه قدرة الواحد فلا بد من اجتماع القدر الكثير من ابناء جنسه

ليحصل القوت له ولهم فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لاكثر منهم باضعاف ، وكذلك يحتاج كل واحد منهم ايضا فى الدفاع من نفسه الى الاستعانة بابناء جنسه لان الله سبحانه لما ركب الطبـــاع فى الحيوانات كلها وقسم القدر بينها جعل حظوظ كثير من الحيوانات العجم من القدرة اكمل من حظ الانســـان كقدرة الفرس مثلا اعظم بكثير من قدرة الانســـان وكذا قدرة الحمار والثور وقدرة الاسد والفيل اضعاف من قدرته . ولما كان العدوان طبيعيا فى الحيوان جعل لكل واحد منها عضوا يختص بمدافعته ما يصل اليه من عادية غيره . وجعل للانسان عوضا من ذلك كله الفكر واليد ، فاليد مهيئة للصنائع بخدمة الفكـــر والصنائع تحصل له الآلات التي تنوب عن الجوارح المعدة فى سائر الحيوانات للدفاع مثل الرياح التـــي تنوب عن القرون الناطحة والسيوف النائبة عن المخالب الجارحة والتراس النائبة عن البشرات الجاسية الى غير ذلك مما ذكره جالينوس فى كتاب منافع الاعضاء . فالواحد من البشر لا تقاوم قدرته قدرة واحد مـــن الحيوانات العجم سيما المفترسة فهو عاجز عـــن مدافعتها وحده بالجملة ، ولا تفي قدرته ايضا باستعمال الآلات المعدة للمدافعة لكثرتها وكثرة الصنائع والمواعين المعدة لها فلابد فى ذلك كله من التعاون عليه بابنـــاء جنسه وما لم يكن هذا التعاون فلا يحصل له قـــوت ولا غذاء ، ولا تتم حياته لما ركبه الله تعالى عليه من الحاجة الى الغذاء فى حياته ولا يحصل له ايضا دفاع عن نفسه لفقدان السلاح فيكون فريسة للحيوانـــات ويعاجله الهلاك عن مدى حياته ويبطل نوع البشـــر واذا كان التعاون حصل له القوة للغذاء والســـلاح للمدافعة ، وتمت حكمة الله فى بقائه وحفظ نوعه فاذن الاجتماع ضروري للنوع الانساني والا لم يكمل وجودهم **وما اراده الله من اعتمار العالم بهم واستخلافه اياهم**، وهذا هو معنى العمران الذي جعلناه موضوعا لهذا العلم ، وفى هذا الكلام نوع اثبات للموضوع فى نفسه الذي هو موضوع له . وهذا وان لم يكن واجبا على صاحب الفن لما تقرر فى الصناعة المنطقية انه ليس على صاحب علم اثبات الموضوع فى ذلك العلم . فليس ايضا من الممنوعات عندهم فيكون اثباته من التبرعات والله الموفق بفضله . ثم ان هذا الاجتماع اذا حصل للبشر كما قررناه وتم عمران العالم بهم فلا بد مـــن وازع يدفع بعضهم عن بعض لما فى طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم وليست آلة السلاح التي جعلـــت دفعه لعدوان الحيوان العجم عنهم كافيـــة فى دفـــع العدوان عنهم لانها موجودة لجميعهم فلابد من شـــيء آخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض ولا يكون من غيرهم **لقصور جميع الحيوانات عن مداركهم والهاماتهم** فيكون ذلك الوازع واحدا منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة حتى لا يصل احد الى غيره بعـــدوان **وهذا هو معنى الملك** ، وقد تبين لك بهذا انه **خاصة للانسان طبيعية ولا بد لهم منها** ، وقد يوجد فى بعض الحيوانات العجم ـــ على ما ذكره الحكماء ـــ كما فى النحل والجراد ، لما استقرىء فيها مـــن الحكـــم والانقياد والاتباع لرئيس من اشخاصها متميز عنها فى خلقه وجثمانه ، الا ان ذلك موجود لغير الانســـان **بمقتضى الفطرة والهداية ، لا بمقتضـــى الفكـــرة والسياسة** ، اعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، وتزيـــد الفلاسفة على هذا البرهان حيث يحاولون اثبـــات **النبوة بالدليل العقلي ، وانها خاصة طبيعية للانسان** فيقررون هذا البرهان الى غايته ، وانه لابد للبشر من الحكم الوازع ، ثم يقولون بعد ذلك ، **وذلك الحكم يكون بشرع مفروض من عند الله ياتي به واحد من البشر** ، وانه لابد ان يكون متميزا عنهم بما يودع الله فيه من خواص هدايته ليقع التسليم له والقبول منـــه حتى يتم الحكم فيهم وعليهم من غير انكار ولا تزييف ، وهذه القضية للحكماء غير برهانية كما تـــراه ، ان الوجود وحياة البشر قد تتم من دون ذلك بما يفرضه الحاكم لنفسه او بالعصبية التي يقتدر بها على قهرهم وحملهم على عادته ، فاهل الكتاب والمتبعون للانبياء قليلون بالنسبة الى المجوس الذين ليس لهم كتاب ، فانهم اكثر اهل العالم ، ومع ذلك فقد كانت لهم الدول والآثار فضلا من الحياة ، وكذلك هي لهم لهذا العهد فى الاقاليم المنحرفة فى الشمال والجنوب (ولكن هذه الدول وهذه الحياة) بخلاف حياة البشر (فهي فى) فوضى (و) دون وازع لهم البتة (ووجود الوازع لهم) فانه يمتنع . وبهذا يتبين لك غلطهم فى (انكار) وجوب النبوات وانه (رايهم) ليس بعقلي . وانما (وجـــوب النبوات) مدركه الشرع كما هو مذهب السلف من الامة والله ولي التوفيق والهداية (8) .

النظـــرة الواقعيـــة :

البرهان الرياضي يعتمد على مسلمات .

والبرهان الطبيعي يعتمد علـــى موجـــودات (الظواهر الحسية) .

والبرهان التاريخي يعتمد على نظريات (الفرضية الظنية) ...

وغالب هذه الاسس ، وسواها مما تبنى عليها العلوم صرحها) ، تتارجح ذات اليمين وذات الشمال ، بين الظن واليقين ... بين الحتمية والاحتمال ، وبين الواجب والامكان .

فالبرهان الهندسي الذي يقوم على اساس مسلمات اقليدس هو غير البرهان الذي يقوم على اساس مسلمات لوبتشفسكي ، الذي اعتبر المكان على شكل السطح الداخلي للاسطوانة ، تقول فرضيته : من نقطة خارجة عن مستقيم يمكن رسم خطوط لا حصر لها موازية لهذا المستقيم . ونتيجة لهذه المسلمة اصبح مجموع زوايا المثلث اقل من قائمتين ، ويمكن ان نتصور ان الخطين المتوازيين قد لا يلتقيان ابدا على خلاف ما قاله اقليدس ، كما ان هذا وذاك غير البرهان الهندسي الذي يقوم على اساس مسلمات العالم الالماني ريمان ، الذي فرض المكان كرويا ، تقول فرضيته : من نقطة خارجة عن مستقيم لا يمكن رسم خط واحد مواز لهذا المستقيم ، وفي مثل هذا المكان يمكن ان نتصور كل الخطوط متقاطعة لانها تكون شبيهة بخطوط الطول على الكرة الارضية ، تتلاقى وتتقاطع عند القطبين . ونتيجة لهذه المسلمة يصبح مجموع زوايا المثلث اكثر من قائمتين) . ونحصل بالنتيجة على هذا التقرير المتناقض منطقيا الصحيح عمليا : (مجموع زوايا المثلث تساوي قائمتين — اقليدس — مجموع زوايا المثلث اكثر من قائمتين — ريمان — مجموع زوايا المثلث اقل من قائمتين — لوبتشفسكي —) .

كما ان البرهنة على مبدا التقيد والحتمية في الطبيعة (هذا المبدا هو الايمان بوجود نظام ثابت عام تخضع له جميع الظواهر في الطبيعة) لم تسلم من كونها قائمة على اساس الطريقة الاستقرائية (وهي تعميم الحكم الصادر على بعض افراد الفئة على جميع الافراد في الفئة ... اي الانتقال من المعلوم الى المجهول ، وهذا يناقض قواعد المنطق القائلة : — صدق الحكم الجزئي ليس دليلا على صدق الحكم الكلي —) ولكن الذي دعم هذه البرهنة هو العقل الذي لا يقبل بان تسود الطبيعة الفوضى ، دعمها بالرغم من الوقائع المادية ، ايضا ، التي تثبت انفلات عالم الذرة من مبدا التقيد والحتمية ، وعدم امكانية تحديد وضع الكهارب وسرعتها في الوقت الحاضر . (يقال ان تقيد الذرة جزئي .. بحيث لم يمكن دراستها عن كثب فهي كالقطة في الغرفة المظلمة ، فلا يستطيع الدارس تحديد موضعها الا باستعمال النور واشعال النور يتبعه خوف القطة وبالتالي تحركها عن موضعها ...) .

وكذلك اختلاف النظريات حول تاريخ الارض ونشاتها بين العلماء من فلكيين وجيولوجيين فلكل واحد منهم نظرية غير نظرية قرينه ، وكل نظرية من هذه النظريات هي مدرسة قائمة بذاتها ، وقد برهن عليها قائلها برهانا لا يحتمل الشك واورد عليها ادلة وشواهد لا تجاوز العقل .. واذا اقتنع هذا العقل بالبرهان على النظرية الواحدة تعرض عليه ، لسوف يشكك اذا استعرضها جميعا على هذا الشكل غير المنطقي .. مثلا:

1 — اصل الارض كتلة ملتهبة انفصلت عن الشمس .

2 — اصل الارض كتلة من كوكب ضخم انفجر في الفضاء ..

3 — اصل الارض تجمع غازات في الفضاء تجمدت فيما بعد .. وهكذا ..) .

اذن استطيع ان اعرف البرهان بانه عملية سحرية ، الغاية منها ارضاء الغرور البشري .. بحيث ان الانسان والعقل الواعي فيه بالذات لا يستطيع ان يدرك دنيا بلا حدود ، ولا شيئا بلا بداية ونهاية ، ولا ان يدرك امرا غير ملموس بحواسه فياتي البرهان العلمي لكي يشبع هذا الغرور المتجدد فينا في كل لحظة نضع فيها قدمنا على باب جديد من ابواب الغيب والسر والكتمان ، التي تحيط بعالمنا العام والخاص من كل جانب ، ملتمسين بجوانب البرهان الراحة .. ولكنها راحة مؤقتة بحيث ما يثبته البرهان اليوم قد ينقده في الغد .

بالرغم مما تقدم ، كان لابد لي من ان اسير هذا المسار ، اتخذ لبحثي اميزة البيان في نشاة الانسان ، ، مسلمات معينة مع اساس فكري معين ، انطلق منه واقيم البراهين على ضوئه ، بحيث ان لكل نظرية اسسا فكرية (ايديولوجية) معينة تقوم عليها .

وسوف لا يضير بحثي ان اسير به في ركاب علمائنا العظام الذين انارو للبشرية طريقها في الحضارة ، ووضعوا لها الاسس الثابتة لمختلف العلوم — على الغالب — وهؤلاء العباقرة امثال : ابن

سينا ، في الطب — وابن الهيثم في البصريات والضوء — والرازي وجابر الكوفي ، في الكيمياء — وابن فرناس في الفلك والطيران — والفارابي في النفس والجبر والإعداد — وابن رشد ، والغزالي ، في الفلسفة والاشراق وما وراء الطبيعة .. وكثير غيرهم .. قد بنوا نظرياتهم العلمية على اساس النظرة الاسلامية العامة وانطلقوا منها ولم يتجاوزوا حدودها .

ولم يكن نهجي هذا قائما على اساس التقليد الاعمى ، بل هو اعتقاد عقلي وتعجب علمي للاسباب التالية :

1) لا نستطيع ان نتصور هذا الانسان الدقيق باجهزته .. المعقد بتركيبه .. الهادف بفطرته .. الذي يتالف من مجموعة فعاليات روحية ومادية .. دون منهج يضبط خطاه على الارض دفعا للحيرة ، ويحدد له معاني النور والاشراق في عالمه الخاص والعام دفعا للضياع في ظلمات النفس وعتمتها .

(.. لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا — الآية 48 المائدة) .

فكان الدين هدية من الخالق الى المخلوق . وهداية له على درب القمر والاجبار .

(قال : ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى. الآية 50 طه) .

2) وهذا الانسان بما يملك من الاحاسيس والمشاعر الراقية ، وبما ركب فيه من الدوافع الفطرية المتباينة .. مثل : دافعي : الحب والبغض — دافعي الخوف والغضب — دافعي التملك والجوع .. الخ. لا يمكن ان يسير هذا المركب العجيب بدون ناموس عام ثابت يعتقد به ، ومنهج قويم لا ينحرف ولا يتارجح يفسر له العلاقات بين هذه الدوافع المتناقضة من جهة وبين المشاعر والاحاسيس من جهة اخرى ..

(ونفس وما سواها . فالهمها فجورها وتقواها . قد افلح من زكاها . وقد خاب من دساها .. (سورة الشمس .

منهج فيه معنى السمو والكمال، يسمح للبراهين العلمية ان تحوم حوله فتصيبه تارة وتخطؤه اخرى حتى تصل الى الحقيقة .

(سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق — فصلت 53) .

3) والاسلام الذي هو خاتم الديانات السماوية ، واكملها تشريعا ، واثبتها رواية ونقلا واقربها من انسان اليوم نزولا من السماء .. **هذا الاسلام قد برهن على صحته واثبت صدقه وتفوقه وموضوعيته على طول التجربة التي عاشها خلال اربعة عشر قرنا** . واذا كان هناك من يماري ، ويجادل في غير حق ، ويسلك سبيل السفسطائيين في الجدل العقيم ، فسوف لايجد مناصا من الاذعان او السكوت على جحود امام النصوص الاسلامية التي تكشفت الستر عن المستقبل فتكلمت عنه بايجاز احيانا وباسهاب احيانا اخرى ، وكذلك النصوص التي جاءت تستشهد بالظواهر الكونية كدليل على عظمة الله ؛ لم تتجاوز هذه النصوص الحقائق العلمية المثبتة حتى عصرنا هذا ، والامثلة على ذلك وفيرة ويجدها كل من استقرا النصوص القرآنية والاحاديث النبوية الصحيحة وكان على جانب من الاطلاع والمعرفة وبعد النظر والانصاف .. وسانبت بعضها هنا للاعجاز ..

ا — في الاشارات الفلكية والحقائق الكونية :

1) الارض تدور .. قال تعالى : (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي اتقن كل شيء .. — النمل —)

2) والكواكب والنجوم كلها تدور .. (والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون . — يس —) . والتنوين في (كل) عوضا عن الاضافة التي هي بمعنى كل ما في الفضاء .. وكلمة يسبحون تدل على مادة العوالم الاصلية (الاثير) التي يسبح بها كل شيء .

3) العوالم منظومات من الكواكب المتجاذبة .. (والسماء ذات الحبك — ومالها من فروج — وفي مطلع سورة الملك : .. الذي خلق سبع سماوات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور) .

4) المطر من الارض والى الارض .. (.. والارض بعد ذلك دحاها . اخرج منها ماءها ومرعاها ..)

5) والمطر يهطل من السحاب المتراكم .. (الم تر ان الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله — النور 43 —) الودق : المطر .

6) والرياح هي التي تسوق الغيوم .. (الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا . فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فاذا اصاب به من يشاء من عباده . اذا هم يستبشرون — الروم 49 —) .

7) والارض بعدما تشكلت طبقاتها نهضت فيها سلاسل متعددة من الجبال لكي تتماسك تلك الطبقات فلا تنزلق وبالتالي لتتوازن الارض وتستقر الحياة عليها ..

(والجبال اوتادا — والارض مددناها والقينا فيها رواسي وانبتنا فيها من كل شيء موزون — الحجر — والقى في الارض رواسي ان تميد بكم وانهارا وسبلا لعلكم تهتدون وعلامات وبالنجم هم يهتدون — النحل —) . وفي الآيات الآتية يلاحظ الانسجام بين مفهومنا وبين مفهوم احدث النظريات الجيولوجية حول بعض المراحل التكوينية التي مرت بها الارض .. (.. والارض بعد ذلك دحاها اخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال ارساها . متاعا لكم ولانعامكم — النازعات —)

8) الطيران في الاجواء العالية يؤثر على جهاز التنفس وجهاز دوران الدم ، فيرتفع الضغط ويعيق التنفس ، ويصحب ذلك اعراض نفسية وجسدية اخرى .. ولننظر الى هذه السورة البليغة المعبرة عن الواقع (.. ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كانما يصعد في السماء .. — الانعام 125 —) .

9) النفاذ من الجاذبية الارضية الى الفضاء ، ثم من الفضاء القريب الى فضاء آخر هذا ممكن ولكن بشرط .. (يا معشر الجن والانس ان استطعتم ان تنفذوا من اقطار السموات والارض فانفذوا لا تنفذون الا بسلطان .. — الرحمان —) .

10) الخطوط المرسومة على البصمات تختلف من انسان الى آخر ، وقد لا تتفق بصمتان لانسانين في العالم ، ولما اكتشفت هذه الخاصة استعملت كعلامة مميزة يبصم بها الانسان على تقريراته وتوقيعاته . والقرآن الكريم قد أشار الى هذه الخاصية في معرض القدرة والاعجاز فقال : (.. ايحسب الانسان الن نجمع عظامه ، بلى ، قادرين على ان نسوي بنانه .. — القيامة —) .

ب — اخبار الله تعالى بانتصار الروم على فارس قبل تسع سنوات من الحادث :

الم . غلبت الروم في ادنى الارض . وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين . — روى ابن جرير — باسناده — عن عبد الله بن مسعود — قال : كانت فارس ظاهرة على الروم ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس ، لانهم اهل كتاب وهم اقرب الى دينهم . فلما نزلت : « الم. غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، في بضع سنين » . قالوا (اي المشركون) : يا ابا بكر ان صاحبك يقول : ان الروم تظهر على فارس في بضع سنين . قال : صدق . قالوا — هل لك ان نقامرك (اي نراهنك — وجاء في خبر آخر ان ذلك كان قبل تحريم الرهان بوصفه من الميسر) فبايعوه على اربع قلائص الى سبع سنين . فمضت السبع ولم يكن شيء . ففرح المشركون بذلك ، فشق على المسلمين ، فذكر ذلك للنبي — صلى الله عليه وسلم — فقال : (ما بضع سنين عندكم) : قالوا : دون العشر . قال (اذهب فزايدهم وازدد سنتين في الاجل) . قال فما مضت السنتان ، حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس . ففرح المؤمنون بذلك (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله) — الظلال ج 21 ص 25 .

ج — اخبار الرسول الكريم عن الحوادث التي ستكون بعد وفاته :

1) بشر محمد صلى الله عليه وسلم بأن كنوز كسرى وقيصر ستنفق في سبيل الله .. (عن ابي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قد مات كسرى فلا كسرى بعده، واذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله . » — صحيح مسلم — كتاب الفتن — ج 8 ص 186 — .

وفي هذا اشارة الى السيادة التي ستحققها راية الله على ملك كسرى وقيصر .

2) لقد مرت فترة على المسلمين بعد استشهاد عمر رضي الله عنه مليئة بالفتن .. وقد اخبر عنها الرسول

(عن اسامة : ان النبي صلى الله عليه وسلم، اشرف على اطم من آطام المدينة ثم قال : « هل ترون ما ارى ؟ .. اني لارى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر » . — المرجع السابق 167 —

3) السبئية فئة ضالة اظهرت الاسلام وابطنت الكفر ترجع نسبتها الى عبد الله بن سبا اليهودي . لقد عملت هذه الفئة بالبغي بين المسلمين ففرقت صفوفهم واوقعت الحروب بينهم وكانت سببا في قتل الكثير من الصحابة الكرام ، وقد اخبر الرسول عن قتل بعضهم :

(عن ام سلمة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعمار : «تقتلك الفئة الباغية » — المرجع السابق —

4) عثمان بن عفان رضي الله عنه من المبشرين بالجنة وباستشهاد . لقد ورد ان الرسول كان مع ابي بكر وعمر وعثمان على جبل احد . فاهتز الجبل فقال الرسول مخاطبا الجبل « اثبت احد ان عليك الا نبي وصديق وشهيدان » . ومن الحديث الطويل المشهور الذي اخرجه البخاري (ان ابا موسى الاشعري استاذن لعثمان على رسول الله ، فقال الرسول : « ائذن له وبشره بالجنة معها بلاء يصيبه » . — البخاري ج 9 ص 69.

5) الحسن بن علي سبط رسول الله هو الذي اجهد على الفتنة وتبرها ومهد طريق الصلح بين المسلمين ولقد تنبا الرسول بذلك والحسن ما زال صغيرا . قال ابو بكرة : بينا النبي يخطب جاء الحسن فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ان ابني هذا سيد ، ولعل الله ان يصلح به بين فئتين من المسلمين . — المرجع السابق — .

6) لقد سادت شرعة الاسلام قرونا طويلة كانت خلالها تتارجح — كدولة — بين القوة والضعف ، وذلك بحسب الاناس الذين يمثلونها ، ويعتبر الغاء الخلافة الذي اعقبت اعلان الدستور في تركيا في عام 1908 على يد مصطفى اتاتورك والاتحاديين الاتراك آخر ضربة توجه الى الدولة الاسلامية ، حيث لم يقم لها قائم بعدها . اللهم الا ما قام بحدود ضيقة جدا وفي اطراف متباعدة خلال السنين القريبة التي نعيشها ... ولكن الغالب على الممالك الاسلامية هو ما انتشر من دعاوي الالحاد والمادية والوطنية والقومية منذ الغاء الخلافة وحتى عصرنا هذا . وفي الحديث الآتي تحليل رمزي مسبق ومقتضب لهذه الفترة من التاريخ :

(قال حذيفة بن اليمان : كان الناس يسالون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير وكنت اساله عن الشر مخافة ان يدركني ، فقلت : يا رسول الله انا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير ، فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال نعم . قلت : وهل بعد ذلك الشر من خير ؟ قال : نعم وفيه دخن . قلت وما دخنه ؟ قال : قوم يهدون بغير هدى تعرف منهم وتنكر ، قلت : فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ .. قال : نعم دعاة على ابواب جهنم من اجابهم اليها قذفوه فيها . قلت يا رسول الله صفهم لنا ، قال : هم من جلدتنا ويتكلمون بالسنتنا ، قلت فما تامرني ان ادركني ذلك ؟ قال : تلزم جماعة المسلمين وامامهم قلت فان لم يكن لهم جماعة ولا امام ؟ قال : فاعتزل تلك الفرق كلها ، ولو ان تعض باصل شجرة ، حتى يدركك الموت وانت على ذلك — البخاري — ج 9 ص 65 —) .

د — اخبار الرسول الكريم عن الحوادث التي تسبق قيام الساعة :

1) عندما نكث اليهود عهودهم مع رسول الله في المدينة قاتلهم وشتتهم في البلاد ، ولم يكن لهم بعدها دولة . ولكنه اخبر عن تجمع سيكون لهم ، وقتال سيقع بين المسلمين وبينهم ، فهناك عدة روايات في الصحاح وغيرها ، كل رواية لها ميزة وتنفرد باشارة ، ولكنها تجتمع كلها على ما ذكرت ، فمن هذه الروايات :

أ) (عن عبد الله بن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « تقاتلكم اليهود فتسلطون عليهم حتى يقول الحجر يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله » .) — صحيح مسلم ج 8 ص

188 — في هذا الحديث اشارة الى انهم هم المعتدون بالاضافة الى تجمعهم حيث لا يقاتل قوم الا ولهم دولة (وقد حدث) .

ب) عن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبىء اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر او الشجر يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله الا الغرقد فانه من شجر اليهود .

— المرجع السابق — اذا كان شجر الغرقد لا ينزرع الا في فلسطين — كما قال لي قائل — ففي الحديث اشارة الى مكان تجمعهم ، ولعل هذا الشجر قد نسب اليهم لانهم اكثر الناس زراعة له في زمن معين ومكان معين .. ولقد شاهدت هذا الشجر على جبال الخليل فهو شجر قصير القامة كثيف الاغصان والاوراق ، اغصانه على تماس مع الارض مما يجعل له جيوبا تتسع للاختباء ، ويحمل ثمرا صغيرا بقياس حبة الفول اليابسة ، وهو قريب بالطعم من الخرنوب .

ج) ومن اعجب الاحاديث التي سمعتها — ولا اعلم مدى صحتها — هذا الحديث الذي يحدد مكان القتال بين اليهود والمسلمين :

« لتقاتلن اليهود على نهر يقال له الاردن انتم على شرقيه وهم على غربيه » .

واما الحديث عن الفئتين العظيمتين اللتين ستقتتلان ويكون بينهما مقتلة عظيمة .. وعن كثرة الزلازل والشرط وتقارب الزمان .. فالحديث عنها طويل وايراد الشواهد عليها وتحليلها ضرب من المحال في هذا البحث بالذات . وانما اثبت هنا حديثا نبويا ، عجبا ، يمدنا باليقين الذي لا تشوبه شائبة عن صدق الاسلام وكون رسوله لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى .. هذا الحديث الذي وقعت اكثر فقراته ولمسنا وقوعها بايدينا وشاهدناه بام اعيننا قد قراته في كتاب (محاضرة الابرار ومسامرة الاخيار — لسيدي الشيخ محيي الدين بن عربي) وهو من المطبوعات الاثرية بالخط الحجري في مكتبة استاذي الشيخ محمد ابي الفرج الخطيب .. هذا نصه :

(وروينا من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الحجة ان النبي صلى الله عليه وسلم اخذ بحلقة باب الكعبة ثم اقبل بوجهه على الناس فقال يا معشر المسلمين ان من اشراط القيامة اماتة الصلاة واتباع الشهوات وتكون امراء خونة ووزراء فسقة فوثب سلمان الفارسي رضي الله عنه فقال ، بابي انت وامي يا رسول الله ان هذا ليكون . قال نعم يا سلمان ، وعندها يكون المنكر معروفا والمعروف منكرا قال : ويكون ذلك . قال نعم يا سلمان ، وعندها يذوب قلب المؤمن في جوفه كما يذوب الملح في الماء مما يرى ولا يستطيع ان يغيره . قال او يكون ذلك ؟ قال نعم يا سلمان . ويؤتمن الخائن ويخون الامين ويصدق الكاذب ويكذب الصادق ، قال او يكون ذلك قال : نعم يا سلمان ان اولى الناس قوم المؤمن بينهم يمشي بالمخافة ان تكلم اكلوه وان سكت مات بغيظه . يا سلمان ما قدست امة لاتنتقم من قويها لضعيفها ، قال : اليكون ذلك ؟ قال نعم يا سلمان . عندها يكون المطر قيظا والولد غيظا وتفيض اللئام فيضا وتغيظ الكرام غيظا ، قال ويكون ذلك ؟ قال : نعم يا سلمان عندها يعظم رب المال ويباع الدين بالدنيا وتلتمس الدنيا بعمل الآخرة واكتفى الرجال بالرجال والنساء بالنساء وتركب ذوات الفروج السروج فعليهم من امتي لعنة الله ، يا سلمان عندها يلي امتي قوم جثتهم جثة الناس وقلوبهم قلوب الشياطين ان تكلموا قتلوهم وان سكتوا استباحوهم لا يرحمون صغيرا ولا يوقرون كبيرا لساء ما يزرون وتوطا حرمتهم ويحار في حكمهم عند ذلك تكون امارة النساء ومشاورة الاماء ونفوذ الصبيان على الناس وتكثر الشرط وتتحلى ذكور امتي بالذهب ويتهاون بالزنا وتظهر القينات ويتغنى بكتاب الله وتتكلم الرويبضة ، قلت بابي انت يا رسول الله وامي ، وما الرويبضة ؟؟ قال : يتكلم في امر العامة من لم يتكلم قبل ، قال او يكون ذلك يا رسول الله . قال نعم يا سلمان ، عندها تزخرف المساجد كما تزخرف الكنائس والبيع وتحلى المصاحف بالذهب وتطول المنابر وتكثر الصفوف والقلوب متباغضة والالسن مختلفة ونوالهم لمعة من اعطى على لسان من اعطى شكر ومن منع كفر قال او يكون ذلك قال نعم يا سلمان . عند ذلك ياتي سبايا من المشرق والمغرب تكون من امتي فويل للضعفاء منهم وويل لهم من الله ان تكلموا قتلوا وان سكتوا قتلوا موت على طاعة الله خير من حياة على معصية الله ، قال ويكون ذلك ، قال نعم يا سلمان . عندها تشارك المراة زوجها

في امره ويعق الرجل والده ويبر صديقه يلبسون جلود الضان على قلوب الذئاب علماؤهم شر من الجيفة قال او يكون ذلك يا رسول الله قال نعم يا سلمان . عندها تكون عبادتهم فيما بينهم التلاوة لها فيما ولا بد يسمون في ملكوت السموات والارض الانجاس الارجاس ، قال ويكون ذلك قال نعم يا سلمان . عند ذلك يتخذ كتاب الله مزامير وينبذ كتاب الله وراء ظهورهم يعطلون الحدود ويميتون سنتي ويحبون البدعة ولا يقام يومئذ بنصر الله لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر عندها يغار على الغلام كما يغار على الجارية ويخطب كما تخطب النساء ويهيء كما تهيء المراة . عندها تقارب الاسواق قلت بابي انت وامي يا رسول الله وما تقارب الاسواق ، قال يقول لا ابيع ولا اشتري ولا رازق غير الله . يا سلمان عندها تليهم الجبابرة ويمنعون حقوقهم ويملأون قلوبهم رعبا ، فلا ترى الا خائفا مرعوبا عند ذلك يرفع الحج فلا حج ، يحج كبار الناس للهوى واوساط الناس للتجارة وفقراء الناس للرياء والسمعة ، قال او يكون ذلك قال نعم يا سلمان .. الحديث ، وسياتي معناه في هذا الكتاب مستوفى من حديث الكناني وقد انتهى المجلس من محاضرة الابرار .. — ص 39 — 40 الجزء الاول —).

وبعد ، فلا سبيل الى نكران الاسلام ، والموارية عن سبيله المستقيم .. وخاصة بعد ان ثبتت صحته ، وتبين للقاصي والداني صدق نصوصه ومروياته .

لهذا كله جعلت الاسلام اساسا فكريا لبحث (ميزة البيان في شان الانسان) والله ولي التوفيق .

الانسان والبيان :

اذا آمنا ان الانسان مركب شديد التعقيد تسير كل خلية من خلاياه بنظام عجيب ، واذا علمنا ان عالم الفلك يعج بالكواكب والنجوم ، وانه يسير ايضا بنظام عجيب دقيق ، واذا قارنا بين هذا الانسان المذهل التركيب ، وبين ذلك الكون بنظامه الدقيق ، وحجمه الواسع الشاسع ، لوجدنا ان الانسان مثاله كما قال حافظ ابراهيم :

« وما انا الا ذرة قد حوتها ذرة في فضاء ربي تدور »

اذن فالانسان لا يمكن ان يقوم بذاته ولابد من يد خفية وقوة لا يراها ولا يدركها قد اوجدته قمرا وسوف تخرجه من هذه الحياة قمرا وهي تتحكم بمصيره شاء ام ابى . وذلك ما اثبته ايضا . اصحاب النظريات العلمية في السابق وفي الحاضر كامثال العالم جميس جينز — في الفلك — والعالم الدكتور اليكسس كاريل — في علم الحياة — والعالم انشتاين — في الذرة والفضاء — .. الخ وبهذا يتحقق قول الله تعالى : (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق) .

وهذا يتبعه بالعقل كون الانسان لم يترك سدى، ولا بد له من مرشد ودليل في خضم هذه الحياة الزاخرة بالمتناقضات (قال : فمن ربكما يا موسى ؟ . قال : ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى .. — طه —) .

ولا بد هناك من خط عام وعميق في نفس الوقت لكي يسير عليه خليفة الله في ارضه .. فكان الكتاب (او قل القرآن .. وهو لغة الضم والجمع) الذي خطه القلم على اللوح المحفوظ من عالم الازل والذي علمه الروح الامين رسول الله الى الانبياء والمرسلين (جبريل عليه السلام) فكان ينزل باحكامه على الانبياء والرسل بحسب ما تحتاجه الامم والقبائل التي ينتمون اليها .

وفي خاتمة المطاف ضم القرآن وجمع كل هذا فسمي قرآنا . وتمت به كلمة الله ومنهاج الله القويم لهذا الانسان .. فجاء الخطاب للبشرية : (اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا) والدليل على هذا من كتاب الله جل وعلا . ايضا :

« الرحمان . علم القرآن . خلق الانسان . علمه البيان »

هذه الآيات الرائعة ذات الوزن الموسيقي البديع تحمل اعمق المعاني ، وادق التعبير .

انها مطلع الاعلان العام — سورة الرحمان — الموجه الى العالمين الانسي والجني . ومفتاح الخطاب في ساحة الوجود .

هذا الاعلان يذكر بالآلاء والنعم .. ويستجلب القلوب الى الصراط المستقيم .. ثم يهدد ويتوعد الذين يميلون عنه بالاخذ الشديد والعذاب الاليم . وهو بين كل فترة واخرى يسأل على صيغة الاستفهام التقريري (فباي آلاء ربكما تكذبان) مكررا ذلك احدى وثلاثين مرة .. ويرد الثقلان بالقول : (ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد) (9) .